



أعظم عظماء العالم

تأليف

أحمد ديدات   مايكل هارت

ترجمة

على الجوهرى



بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (مُنتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

لتحميل انواع الكتب راجع: (مُنتَدى إقْرَأ الثَقافِي)

براي دانلود كتابهاى مختلف مراجعه: (منتدى اقرأ الثقافي)

www. Iqra.ahlamontada.com



www.iqra.ahlamontada.com

للكتب (كوردى ,عربي ,فارسي)



أعظم عظماء العالم

تأليف

أحمد ديدات - مايكل هارت

ترجمة

علي الجوهري

مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع

ديدات، أحمد حسين، ١٩١٨-
محمد أعظم عظماء العالم / تأليف أحمد ديدات، مايكل هارت؛ ترجمة على الجوهرى.
-ط٢ - القاهرة، مكتبة القرآن للطبع والنشر، ٢٠٠٧
٨٠ ص؛ ٢٤ سم
تدمك ٧ ٣٧٢ ٢٥٠ ٩٧٧
١- السيرة النبوية ٢- أخلاق الرسول
أ - هارت، مايكل (مؤلف مشارك). ب- الجوهرى، على (مترجم).
جـ- العنوان.
٢٣٩

رقم الإيداع: ١٩٣٦ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولي: 7 -372 -250-977



طبع بمطابع ابن سينا بالقاهرة ت: ٣٢٠٩٧٢٨ فاكس: ٦٢٨٠٤٨٣



مقدمة المترجم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

يضم هذا الكتاب بين دفتيه ترجمة الفصل الأول من كتاب مايكل هـ. هارت المعنون بعنوان: «**العظماء مائة أولهم محمد ﷺ**»، وكذلك ترجمة كتاب العلامة الشيخ أحمد ديدات المعنون بعنوان: «**محمد ﷺ أعظم العظماء فى العالم**».

وإذا كان خصوم الإسلام قد كالوا الاتهامات الزائفة الكاذبة إلى الإسلام وإلى نبى الإسلام ﷺ إلى حد أن كتب محررو دائرة المعارف لاروس الفرنسية عن محمد ﷺ قولهم: «بقى محمد مع ذلك ساحرًا ممعنًا فى فساد الخلق، لصٌّ نِيَاق، «كاردينالا» لم ينجح فى الوصول إلى كرسى البابوية فاخترع دينًا جديدًا لينتقم من زملائه»، وإذا كان خصوم الإسلام قد حاولوا صَدَّ أتباعهم عن التحوُّل إلى اعتناق دين الإسلام؛ لأنه دين الحق بكل بساطة، وبكل وضوح، بمثل هذه الأكاذيب والأباطيل، فلقد قيَّض الله للإسلام ولنبى الإسلام ﷺ من الكُتَّاب وقادة الفكر، شرقًا وغربًا، مَنْ يدافع عن الإسلام وعن نبى الإسلام ﷺ ويدفع عنه هذه التهم الزائفة والأباطيل الكاذبة.

والفصل الأول من كتاب مايكل هـ. هارت يجعل نبىَّ الإسلام ﷺ أعظم العظماء دون منازع! ولا يقف الشيخ أحمد ديدات عند وقائع السيرة النبوية

الشريفة لكي يسردها مجرد سرد ، بل إنه يتأمل وقائع معينة ليستخلص منها سِرَّ عظمة الرسول ﷺ بأسلوبه السلس البليغ باللغة الإنجليزية التي يتكلمها ثلثا سكان العالم ، مع المقارنة بين عظمة نبي الإسلام ﷺ والأنبياء الآخرين عليهم السلام .

والله وليُّ التوفيق ، وهو سبحانه نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير ،

المترجم

على الجوهري

●●●

محمد ﷺ (١)

(٥٧٠ - ٦٣٢م)

يجوز أن يُدْهِشَ اختياري محمدًا ﷺ ليكون على رأس قائمة أكثر الأشخاص تأثيرًا في العالم بَعْضَ القراء ، وربما كان ذلك عُرْضَةً للاستفسار من آخرين ، ولكنه ﷺ كان هو الرجل الوحيد في التاريخ الذي تحقق له النجاح الكامل - كل الكمال - على المستوى الديني وعلى المستوى الدنيوي .

لقد وضع محمد ﷺ أسس واحد من أعظم الأديان في العالم ، وقام بنشرها استنادًا إلى مصادر جِدّ ضئيلة ، وأصبح أيضًا قائدًا سياسيًا عظيم التأثير . واليوم ، وبعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا من وفاته ، لا يزال تأثيره قويًا واسعَ الانتشار .

ومعظم الأشخاص الذين يضم هذا الكتاب لمحات من تاريخ حياتهم توافرت لدى كل مِنهم ميزة أنه قد وُلِدَ ونشأ وترعرع وتكاملت معالم شخصيته في أوساط ذات صبغة حضارية ، وأتيحت له فرصة أن يتثقف ثقافة رفيعة المستوى في العصر الذي بزغ فيه نجمه في ربوع أمة ذات وزن سياسي كبير .

ولقد كان ميلاد محمد ﷺ على كل حال ، في سنة ٥٧٠ ميلادية ، في مدينة مكة ، في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ، التي كانت آنذاك منطقة بعيدة عن مراكز الحضارة في بقية أرجاء العالم المعمور في ذلك الوقت ؛ إذ كانت بعيدة كل البعد عن مراكز التجارة والفن والعلم . وإذا كان ﷺ قد

(١) التزمنا في هذا الكتاب بالترجمة الحرفية بوجه عام إلى أكبر حد ممكن، ولم نضف أي شيء ما لم يكن له لزوم. وعلى سبيل المثال لا الحصر إذا كان الكتّاب والمؤلفون الغربيون لا يصلون ولا يُسَلِّمُونَ على النبي ﷺ كلما ذكروا اسمه، فلا عُذْرَ لرجل مسلم مثلي في أن يجاريهم في ذلك، بل إنني لا أجيز لنفسي أن أذكر المسيح أو أي نبي من الأنبياء - عليهم السلام - دون التسليم عليهم. ولم نضف أي كلام إلا نزولاً على مقتضيات اللغة أو لإزالة اللبس في المعنى في بعض الأحيان (المترجم).

أصبح يتيم الأبوين في سِنِّ السادسة ، فإنه قد نشأ في ظروف بالغة التواضع . . . . وتؤكد لنا المصادر الإسلامية كافة أنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب . ولقد تحسنت ظروفه المالية [١] عندما تزوج في سِنِّ الخامسة والعشرين من أرملة غنية . وبالرغم من ذلك ، وحتى شارف بلوغ الأربعين من العمر ، كان هنالك القليل الذي ينم عن أنه كان شخصًا مرموقًا متميز المكانة بين الناس [٢] .

وكان معظم العرب آنذاك يعبدون الأوثان ، ويؤمنون بآلهة متعددة . وكان هنالك في مكة ، على كل حال ، عدد قليل من اليهود والمسيحيين ، ولا ريب في أن محمدًا ﷺ قد عرف منهم بوجود [٣] إله واحد قادر يحكم العالم كله . وعندما بلغ ﷺ الأربعين من العمر أصبح مقتنعًا أن هذا الإله الواحد القادر (الله) كان يوحى كلامه إليه ، وكان الله قد اختاره لكي ينشر الدين الصحيح[٤] .

ولمدة ثلاث سنوات أخذ محمد ﷺ يدعو أصحابه وذوي قرابته إلى الإيمان بالدين الصحيح . وبعدئذ ، في حوالي سنة (٦١٣م) بدأ يدعو علنًا إلى الدين الصحيح . وعندما بدأ يكسب أتباعًا لدينه الصحيح ببطء أصبحت السلطات في مكة تعتبره إزعاجًا خطيرًا . وفي عام (٦٢٢م) خوفًا على سلامته ، هرب [٥]

(١) كانت السيدة خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها- هي التي سعت من جانبها للزواج من سيدنا محمدﷺ لأمانته وجميل سجاياه، ونجحت في مسعاها ذلك، ولم يكن سيدنا محمدﷺ هو الذي سعى للزواج منها لتحسين ظروفه المالية، وقد كان طوال حياته عزوفًا عن الحصول على الأموال واكتنازها (المترجم).

(٢) هذا كلام عار من الصحة، فقد عُرِف محمدﷺ واشتهر منذ شبابه، بالأمين.. ووقائع التاريخ كثيرة تدُل على ذلك.

(٣) كان النصارى بنجران، وكان اليهود بيثرب، أما مكة فكان فيها الحنفاء وكان فيها بقية من ميراث دين إبراهيم الحنيف عليه السلام، وكان ﷺ يتعبد على دين جده إبراهيم.

(٤) لم يبن محمد ﷺ على ما علمه من حال اليهود والنصارى، وإنما بوحي من الله عز وجل، نزل به الروح الأمين.

(٥) لم تكن هجرة النبي ﷺ لمجرد الخوف على سلامته، ولم تكن هجرته مجرد هروب بسبب ذلك الخوف، ولكن هجرته كانت قدرًا مقدورًا من الله سبحانه وتعالى وبأمر صريح من الله سبحانه وتعالى. ولقد أخبر النبي ﷺ سيدنا أبا بكر الصديق أن الله «قد أذِنَ» له بالهجرة.

إلى المدينة ، وهي مدينة تبعد شمالاً عن مكة بمسافة ٢٠٠ ميل حيث أتيح له وَضْعٌ ذو قوة سياسية عظيمة .

وجرت تسمية هذا الهروب باعتبار أنه «الهجرة» وكان نقطة تَحَوُّل في حياة النبي ﷺ . لقد كان له في مكة أتباع قليلو العدد . وفي المدينة كان له أتباع أكثر ، وسرعان ما اكتسب نفوذًا وسيطرة ، وجعل منه ذلك النفوذ ، وجعلت منه هذه السيطرة حاكمًا يفرض أحكام الحياة الفاضلة [١] . وخلال السنوات القليلة التالية ، وبينما كان أتباع محمد ﷺ يزداد عددهم بسرعة ، جرت معارك متتالية بين المدينة ومكة . وانتهت هذه الحروب المتتالية في سنة (٦٣٠م) بعودة محمد ﷺ إلى مكة منتصرًا وتحقق له فَتْحُ مكة . وشهدت السنتان ونصف السنة التالية لفتح مكة تَحوُّلاً سريعًا من القبائل العربية نحو الدين الجديد . وعندما انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى في سنة (٦٣٢م) كان هو الحاكم الفعلي لكل جنوب شبه الجزيرة العربية .

وكان للقبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية سمعة ذائعة ، باعتبار أنهم مقاتلون في غاية الشراسة . ولكن عدد أفراد القبيلة كان صغيرًا ، وكان يفتُّ في عضدهم الفرقة والتشرذم والتطاحن فيما بينهم ، وكان بأسُهُمْ لا يُضَارِعُ بأيٍّ حال بأس وقوة الجيوش الأكبر حجمًا في الممالك ذات الأراضي الزراعية ، التي يسود في ربوعها الاستقرار الموجود في شمال شبه الجزيرة العربية . وعلى كل حال ، وبعد أن توحدت القبائل العربية لأول مرة في التاريخ على يد محمد ﷺ ، وبفضل استلهام عقيدتهم القوية ، وإيمانهم بوجود إله واحد حقيقي ، فلقد قامت هذه الجيوش العربية الصغيرة الحجم بسلسلة مدهشة من الفتوحات الكبرى في التاريخ البشري .

في شمال شرقي شبه الجزيرة العربية كانت تقع الإمبراطورية الفارسية

---

(١) كانت تلك الأحكام بوحي من الله سبحانه وتعالى .

الساسانية الضخمة ، وفي شمال غربي شبه الجزيرة العربية كانت تقع الإمبراطورية البيزنطية أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية حول عاصمتها القسطنطينية الشهيرة . ومن ناحية العدد ، عدد الأفراد في الجيوش المتحاربة ، كان عدد الأفراد في الجيوش العربية قليلاً ، ولا يقارن بعدد الأفراد في جيوش أعدائهم . وبالرغم من ذلك ، وفي ميادين المعارك ، فلقد هزم العرب بسرعة كل جيوش أعدائهم في ميزوبوتاميا (العراق) وسوريا وفلسطين ، وبحلول عام (٦٤٢م) تم للعرب انتزاع مصر من براثن الإمبراطورية الرومانية ، بينما تمكن العرب من سَحْق الجيوش الفارسية في معارك بالقرب من القادسية في عام (٦٣٧م) وحول نهاوند في عام (٦٤٢م) .

ولم يكتف العرب بهذه الانتصارات الباهرة التي تحققت لهم تحت قيادة الجيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ مثل أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب . وبحلول عام (٧١١م) اجتاحت الجيوش العربية [1] بلاد شمال إفريقيا ، حتى وصلت إلى المحيط الأطلسي . وهنالك اتجه العرب شمالاً ، وعبروا مضيق جبل طارق ، واستولوا على أراضي المملكة القشتالية في إسبانيا .

وخلال تلك الحقب من ذلك الزمان ، كان يبدو أنه من اللازم أن يتم للعرب الاستيلاء على كل أوروبا المسيحية ؛ وعلى كل حال ، تمخضت الأحداث التاريخية في عام (٧٣٢م) خلال وقائع معركة «تور» عن هزيمة جيش المسلمين الذي كان قد توغل إلى وسط الأراضي الفرنسية على يد الفرنك تحت قيادة شارك مارتل . وعلى كل حال ، وفي غضون أقل من قرن من الزمان ، استطاع البدو أبناء تلك القبائل العربية المسترشدين بتعاليم نبيِّهم ﷺ أن يستخلصوا لأنفسهم إمبراطورية تمتد من حدود الهند إلى المحيط الأطلسي ، وهي أكبر

(١) هو فتح إسلامي وليس اجتياحًا عربيًا .. ففي الفتح تعريف بالدين الجديد بطرق ووسائل حث عليها الإسلام.. أما الاجتياح ففيه من الدمار ما فيه، وهذا ما لم يعرفه المسلمون في فتوحاتهم.

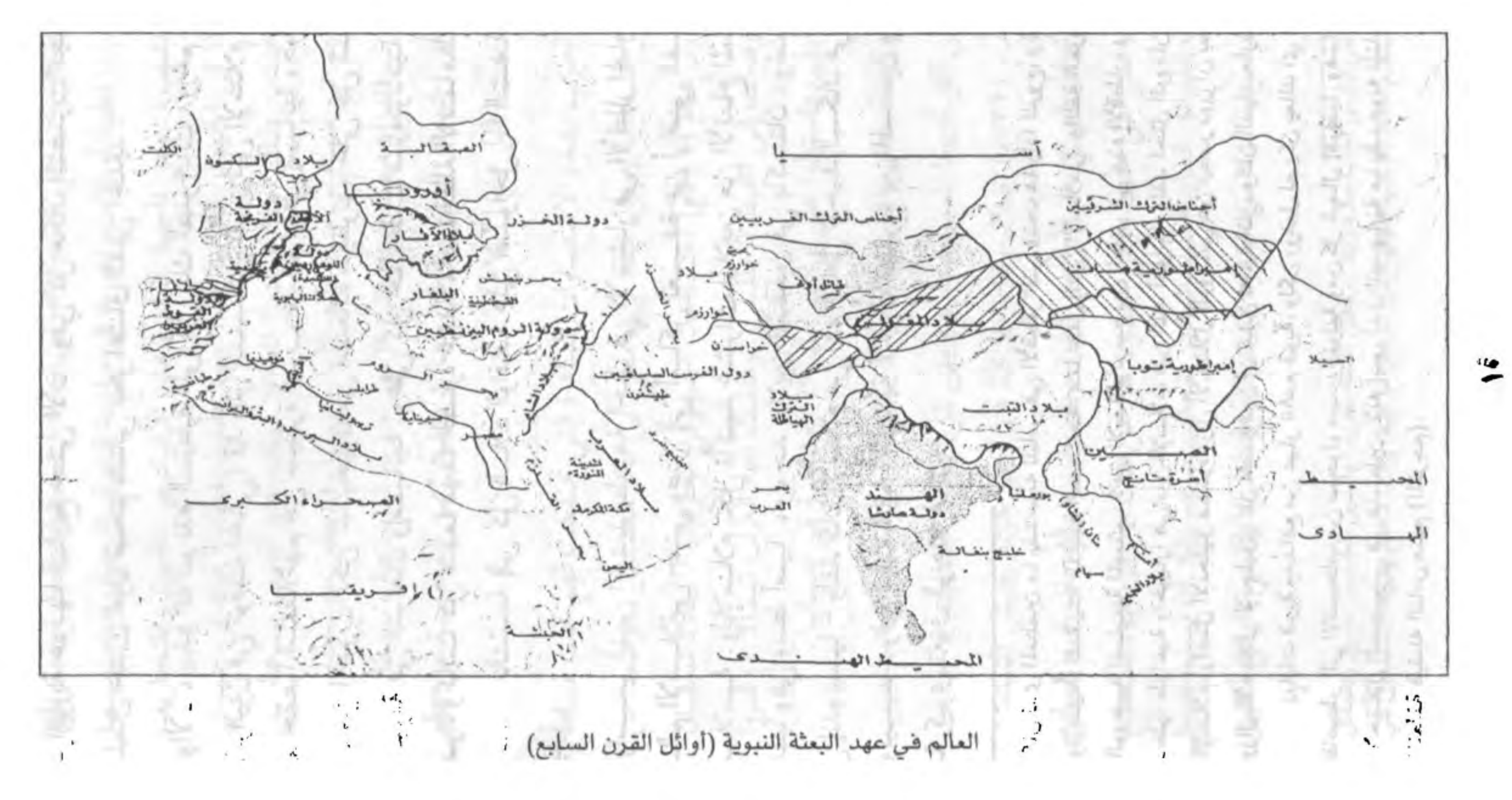
إمبراطورية عرفها التاريخ حتى الآن . وفي كل مكان انتصرت فيه جيوش المسلمين حدث تحول ضخم بالتالي نحو اعتناق الدين الجديد .

والآن ، يبدو أنه لم تدم السيطرة على كل تلك الفتوحات ، ورغم أن الفُرْسَ (الإيرانيين في الوقت الحالي) قد ظلوا متمَسِّكين بدين نبي الإسلام ﷺ نجد أنهم حققوا استقلالهم عن سيطرة العرب عليهم . وفي إسبانيا ، طوال سبعة قرون من الحروب تمكن المسيحيون من استعادة سيطرتهم على كل شبه الجزيرة الأيبيرية في البرتغال وإسبانيا . وعلى كل حال ظلت ميزوبوتاميا (العراق) ومصر ، وكانت كل منهما مَهْدًا لحضارة عريقة ، تحت مظلة الانتماء للعرب كما هو الشأن بالنسبة إلى كل البلاد الواقعة على السواحل [1] الشمالية لقارة إفريقيا .

واستمر الدين الجديد بطبيعة الحال في الانتشار في الأقطار المجاورة لأرض العالم الإسلامي حتى وصل إلى أماكن بعيدة عن أراضي الفتوحات الإسلامية . وللإسلام بكل تأكيد عشرات الملايين من الأتباع المسلمين في إفريقيا وفي وسط آسيا ، ويوجد ملايين المسلمين في باكستان ، وشمال الهند وفي إندونيسيا - ولقد كان الإسلام من أهم عوامل توحيد السكان في بلد مثل إندونيسيا . وفي شبه القارة الهندية لا يزال الصراع بين المسلمين والهندوس عقبة كبرى تعوق الوحدة هناك .

---

(١) كان لدى المسلمين ما يقدمونه للناس في الأقطار التي فتحوها زادًا للروح، وغذاءً للفكر، وترسيخًا للعقيدة الدينية الصحيحة، مما جعل الدين الإسلامي، واللغة العربية، والقيم الروحية السليمة المستمدة من الإسلام ترسخ بين الناس في هذه الأقطار، وتستقر، إذ دخلوا طواعية واختيارًا في دين الإسلام، دين الله، أفواجًا . ولقد احتل الرومان مصر قبل الإسلام، واحتل الإنجليز مصر، وزال الاحتلال الروماني عن مصر دون أن يخلف شيئًا، وزال الاحتلال الإنجليزي عن مصر دون أن تبقى له أية آثار . وكان الفيلد مارشال روميل يملك دبابات قوية ومدافع من عيار ٨٥مم قوية، ولكن روميل لم يكن يملك أي قيم روحية فاضطر إلى الانسحاب من صحراء مصر الغربية ومن كل شمال إفريقيا، وهذا هو مصير الاحتلال الصهيوني في فلسطين، لأنه ليس لدى الصهاينة ما يقدمونه للناس في هذه المنطقة فيقبله الناس منهم (المترجم).



العالم في عهد البعثة النبوية (أوائل القرن السابع)

كيف إذَنْ يستطيع الإنسان أن يزن ويُقيِّم تأثير محمد ﷺ في مجمل التاريخ البشري؟ الإسلام ، شأنه شأن أي دين آخر [١] ، له تأثير هائل في حياة معتنقيه . وهذا هو السبب في أن مؤسسي الأديان الكبرى يحتلون مكانة متميزة في هذا الكتاب . وحيث إنه يوجد على وجه التقريب من المسيحيين ما يصل عددهم إلى ضعف عدد المسلمين ، فمن الجائز أنه يبدو بالتالي من الغرابة بمكان أن نعتبر أن محمدًا ﷺ يحتل مكانة أعلى وأكثر أهمية ، وأجدر بتقديم أهمية دوره في تاريخ البشرية ؛ على مكانة ودور عيسى المسيح عليه السلام . ويوجد لدينا سببان أساسيان لتقديم نبي الإسلام ﷺ على المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام تقديم أولية وأهمية بالنظر إلى التأثير الأقوى في تاريخ البشرية . والسبب الأول هو أن محمدًا ﷺ قد لعب دَوْرًا أكثر أهمية في تأسيس وتطوير الدين الإسلامي من الدور الذي لعبه عيسى عليه السلام في تأسيس وتطوير المسيحية . وعلى الرغم من أن سيدنا عيسى عليه السلام يعتبر مسئولاً عن الجوانب الأخلاقية الرئيسة في المسيحية (من حيث اختلافها عن الأخلاقيات في الديانة اليهودية) فلقد كان القديس بولس هو المسئول عن تطوير اللاهوت المسيحي ، وهو الذي وضع أسس الدعوة إلى الدين المسيحي ، وهو مؤلف الجزء الأكبر من نصوص العهد الجديد .

ولقد كان محمدٌ ﷺ في كل الأحوال ، وبكل المقاييس هو المسئول الوحيد عن معتقدات الإسلام ، وعن كل جوانبه ومبادئه الأخلاقية . وبالإضافة إلى ذلك ، كان محمد ﷺ هو المؤسس الحقيقي الوحيد لكل أسس وقواعد وأصول الدعوة إلى الإسلام [٢] ، باعتبار أن الإسلام كان في حياة النبي ﷺ بمثابة دين جديد يظهر بين الناس لأول مرة ، وكان محمد ﷺ هو الإنسان الوحيد الذى حدد ووضح للناس طرق وأساليب عبادة الله ، وكل ما يتعلق بالعبادات في

---

(١) لا ، ليس شأن الإسلام هو شأن أي دين آخر من حيث التأثير في حياة الناس. يمتاز الإسلام بالبساطة والوضوح، ويخلو الإسلام من أي تعقيد أو تزييف مما يجعل الناس يتقبلون عقائده وشرائعه بكل سهولة وبكل يسر لتستقر عقائد الإسلام وشرائعه في قلوبهم، وليس هذا هو شأن الأديان الأخرى. ولا يتسع المقام لمزيد من التفاصيل (المترجم).

(٢) نؤكد أن ذلك كله بوحي من الله سبحانه، ولم يكن له ﷺ تدخل من تلقاء نفسه، كما فعل القديس بولس بشهادة المؤلف.

الإسلام . وبالإضافة إلى ذلك ، لا جدال في أن محمدًا ﷺ هو «صاحب» الكتاب السماوي أو القرآن الكريم ، وهو مجموعة من التأملات الذاتية [١] التي كان محمد ﷺ يعتقد أنها قد أوحيت إليه مباشرة من الله سبحانه وتعالى . ومعظم ما أوحى إليه من الله قد تم تدوينه كتابة في حياة محمد ﷺ وتم تجميعه في نسخة معتمدة من المصحب الشريف في وقت لم يتأخر كثيرًا عن انتقاله إلى الرفيق الأعلى . والقرآن الكريم ، بناء على ذلك ، يمثل إلى أكبر حد يمكن تصوُّره أفكار محمد ﷺ وتعاليمه ، وتتمثل فيه إلى حد كبير وبكل دقة كلماته . ولم تظهر في عالم البشرية مثل هذه الآثار المكتوبة منسوبة إلى المسيح باعتبار أنها تعاليم المسيح عليه السلام . وحيث إن القرآن الكريم يُمَثِّلُ بالنسبة للمسلمين ما يمثله الإنجيل بالنسبة للمسيحيين من حيث الأهمِّية ، فلقد كان تأثير محمد ﷺ على المسلمين من خلال معطيات القرآن الكريم تأثيرًا عظيمًا . ومن المحتمل أن التأثير النسبيٍّ لمحمد ﷺ في الدين الإسلامي يفوق بكثير التأثير النسبي لكل من المسيح عليه السلام ، والتأثير النسبي للقديس بولس مجتمعين بالنسبة إلى تأثير كليهما في الديانة المسيحية . ولو أننا وضعنا في اعتبارنا المستوى الديني الخالص يبدو لنا أنه من الممكن أن يكون لنبي الإسلام محمد ﷺ من التأثير في التاريخ البشري نفس تأثير المسيح عليه السلام في التاريخ البشري .

ويضاف إلى ذلك أن محمدًا ﷺ كان قائدًا دنيويًا كما كان مؤسسًا لدين جديد ، ولم يكن ذلك هو شأن المسيح عليه السلام ! وفي حقيقة الأمر ، وباعتبار أن محمدًا ﷺ كان يعتبر بحق القوة الدافعة وراء الفتوحات العربية ، فمن الجائز لنا أن نعتبره بحق جديرًا بأن يكون هو أعظم القادة السياسيين تأثيرًا في كل عصور التاريخ البشري .

ويستطيع الإنسان أن يقول بالنسبة إلى كثير من الأحداث التاريخية المهمة إن هذه الأحداث كانت محتملة الحدوث بدون القائد التاريخي الذي قادها .

---

(١) كان ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض، حيث كان نموذجًا يحتذى، والقرآن هو كتاب الله الكريم، وليس تأملات ذاتية وإنما هو تنزيل من حكيم حميد.

وعلى سبيل المثال ، نجد أن المستعمرات في أمريكا الجنوبية كان من المحتمل أن تحصل على استقلالها عن سيطرة دولة (إسبانيا) حتى لو لم يكن سيمون بوليفار قد عاش فوق أرض أمريكا الجنوبية على وجه الإطلاق . ولكن مثل هذا القول لا ينطبق بأي حال على الفتوحات العربية . لم يحدث شيء من هذا القبيل إطلاقًا قبل محمد ﷺ ، ولا يوجد أي سبب يبرر القول بأن هذه الفتوحات كان من الممكن أن تحدث دون وجوده . والفتوحات الوحيدة التي يمكن مقارنتها بالفتوحات الإسلامية [1] هي الفتوحات المغولية فى القرن الثالث عشر التي تُعْزَى أساسًا إلى تأثير جنكيز خان .

والفتح المغولي يختلف كل الاختلاف عن الفتوحات العربيية : فمن العراق إلى المملكة المغربية عند المحيط الأطلسي تمتد سلسلة متصلة الحلقات من الدول العربية المتحدة لا بسبب انتسابها إلى الدين الإسلامي وحده ، ولكنها أيضًا متحدة بسبب اللغة العربية ، والتاريخ المشترك ، والثقافة الواحدة . وتمركز القرآن الكريم في صميم الدين الإسلامي ، وحقيقة أنه مكتوب باللغة العربية هما الاعتباران اللذان يحتمل أن يكونا قد منعا معًا تحطمَ اللغة العربية إلى نثار من اللهجات غير المتجانسة ، وهو الاحتمال الذي كان ممكن الحدوث في ربوع ثلاثة عشر قطرًا من الأقطار العربية . إن الفروق وأوجه الاختلاف والتمايز بين هذه الدول العربية موجودة بطبيعة الحال . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لم تشارك كل من إيران ولا إندونيسيا في الحظر البترولي الذي أعلنه العرب على دول الغرب في شتاء سنة ١٩٧٣-١٩٧٤ . ولم تكن مجرد مصادفة أن كل الدول العربية ، والدول العربية وحدها ، قد شاركت في هذا الحظر البترولي .

ونحن ندرك إذَنْ أن الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي قد لعبت دَوْرًا مهمًا في التاريخ البشري حتى يومنا الحاضر . إنه هو إذن ذلك التآلف المنقطع النظير بين ما هو دُنْيويٌّ وما هو دينيٌّ ، وهو الذي يجعلني أرشح محمدًا ﷺ ليكون الشخص الأوحد الأكثر تأثيرًا في التاريخ الإنساني .

---

(١) لا وجه للمقارنة بين من كانوا يحملون رسالة ربهم ليبلغوها للناس جميعًا، كما أمرهم نبيهم ﷺ وبين تلك الهمجية الشرسة للمغول أعداء الدين والثقافة، وأين هؤلاء من أولئك!؟



أعظم عظماء العالم

تأليف
أحمد ديدات

ترجمة
علي الجوهري



(قرآن كريم- سورة القلم :٤)

كيف بدأ موضوع هذه الدراسة ؟

منذ عشر سنوات أعطاني أحد أبناء عمومتي ، وهو السيد/ محمد مهتار الفاروقي نصًا مكتوبًا بالآلة الكاتبة للمؤرخ الفرنسي «لامارتين» . وكان هذا النص يهدف إلى أن محمدًا ﷺ وهو نبي الإسلام ﷺ كان أعظم رجل عاش على وجه الأرض ، وكان السيد مهتار قد اعتاد أن يمرر المعلومات إليَّ معتقدًا أنني أحْسِنُ استخدامها في الوقت المناسب ، والمكان المناسب . وقبل أن يعطيني ذلك النص المنسوب إلى «لامارتين» كان قد أهدى إليَّ كتابًا بعنوان : «نداء المئذنة» وهو كتاب غالي الثمن من تأليف «البيشوب كنيث كراج» . وبتحليل ذلك الكتاب اكتشفت غِشَّ وخداع المستشرقين المسيحيين !

وألهمني إعجاب ومديح لامارتين لنَبِيِّنا ﷺ ووجدت في نفسي رغبة قوية في مشاركة أفكاره عن نَبِيِّنا ﷺ مع إخوتي المسلمين ، ولم تلبث الفرصة زمنًا طويلاً حتى سنحت لي .

ولقد تلقيت مكالمة هاتفية من إحدى الجمعيات الإسلامية في بلدة «دانهوسر» وهي مدينة صغيرة في شمالي «ناتال» (١) ، وكان أعضاء هذه الجمعية قد نظموا احتفالاً بمناسبة «المولد النبوي الشريف» . ووجهوا إليَّ الدعوة لكي ألقي محاضرة بهذه المناسبة الكريمة . ولذلك اعتبرت ذلك تشريفًا لي ،

(١) بجمهورية جنوب إفريقيا.

وفرصة متاحة ، وميزة كبيرة ، ووافقت على ذلك فورًا . وعندما استفسروا عن موضوع المحاضرة لإعداد الدعاية لها اقترحت أن يكون موضوعها استلهامًا لما كتبه لامارتين هو : «**محمد ﷺ أعظم العظماء**» .

أخطاء متكررة :

عندما وصلت إلى «دانهوسر» لاحظت وجود كمية كبيرة من الإعلانات والملصقات عن اللقاء الذي كنت دعيت لحضوره ، وكان مضمون تلك الإعلانات يقول : إن ديدات سيلقي محاضرة عن «**محمد العظيم**» ﷺ ودَبَّ اليأس في قلبي إلى حَدٍّ ما ، وعندما حاولت الاستفسار عن ذلك أخبروني أن التغيير في عنوان المحاضرة يرجع إلى خطأ عامل الطباعة .

وبعد حوالي شهرين من ذلك ، تلقيت دعوة مماثلة . وكانت الدعوة هذه المرة من إحدى الجمعيات الإسلامية في «بريتوريا» العاصمة الإدارية لجمهورية «جنوب إفريقيا» ، وكان الموضوع الذي اقترحته هو نفس الموضوع :«**محمد ﷺ أعظم العظماء في العالم**» . ولخيبة أملي تمَّ تغيير العنوان مرة أخرى إلى :«محمد العظيم ﷺ » ، وقدمت إليَّ نفس الأسباب والمعاذير ، ووقعت هاتان المصادفتان في موطني جنوب إفريقيا . ولكن دعوني أقدم إليكم مثالاً آخر لما نعاني من مركب النقص والشعور بالدونية - وهو جزء من أمراض الأمة .

ولم يختلف الشأن نفسه في أمريكا :

وفي أثناء رحلتي لإلقاء محاضرات في الولايات المتحدة الأمريكية العظمى في عام ١٩٧٧ ، اكتشفت أن رجالنا في الدنيا الجديدة أقدامهم أيضًا مصنوعة من الصَّلصال . ومن بين الخبرات والتجارب المحزنة التي صادفتني أعتقد أن هذه التجربة تكفي وحدها للبرهنة على صحة ما أشرت إليه .

قرر المسلمون في «إنديانا بوليس» أن ينظموا ما يلزم لكي أقوم بإلقاء محاضرة لي بعنوان : «**ما يقوله الإنجيل عن محمد ﷺ** » واتفقوا على أن يعلنوا ذلك بالضبط ، ولكن خنوعهم لم يمكنهم من ذلك . لقد ظنوا أن عنوان محاضرتي كان عنونًا فضفاضًا حافلاً بالمبالغة ، ولذلك أمْلَتْ عليهم حكمتُهم (هل هي

حكمة؟) أن يخففوا من الغُلَواء وجعلوا عنوان محاضرتي هو : «نبي في الإنجيل» . . ولا شك في أنك ستجد العنوان الذي اقترحوه للمحاضرة عنوانًا ميتًا تافه الدلالة . أيّ من العُنوانين يمكن أن يجذبَ المسلم والمسيحي واليهودي والهندوسي إلى حضور المحاضرة؟ ماذا تعني كلمة «نبي»؟ بالنسبة إلى أغلب الناس ، فهي تعني «أي نبي» من الأنبياء الكثيرين الذين ورد ذكرهم في الإنجيل : أيوب ، يوئيل ، يونان ، عزرا ، اليَسَع ، حِزقيال ، هم عدد قليل من الأنبياء الكثيرين الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ، وكما هو متوقع كان عدد الحضور أقل مما كان منتظرًا .

عقدة النقص :

ما هو السبب في هذا المرض؟ ما هو السبب في عقدة الشعور بالدونية والانحطاط عن الآخرين؟ نعم ! نحن أمة مستضعفة . إن القدرة على الحركة الذاتية مسلوبة منا ، وليس ذلك بسبب أعدائنا فقط ولكن بسبب أصدقائنا وأتباع ديننا ذوي الأرواح الميتة . إننا لا نجرؤ حتى على مجرد ترديد ما يشهد به الله سبحانه وتعالى لنبينا ﷺ ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (القلم :٤) .

الأعظم تأثيرا :

لا غضاضة بالنسبة لأي شخص ، ومن الطبيعي جدًا بالنسبة لأي شخص أن يحب ، وأن يمدح ، وأن يرفع إلى أعلى الدرجات وأن يمجد بطولة القائد الذى يتولى قيادته سواء كان ذلك القائد رجل دين هنديًا أو قديسًا أو نبيًا ، ونحن نفعل ذلك في كثير من الأحيان .

وعلى كل حال ، لو أنني كنت سأقدم هاهنا ما قد قاله أو كَتَبَهُ علماء المسلمين عن نبي الإسلام ﷺ لكان من الممكن أن يعتبر ذلك مجرد مبالغة ، أو خيال جامح ، أو محاولةمن محاولات عبادة شخص من الأشخاص من وجهة نظر المتشككين من خصوم الإسلام . وبناء على ذلك أرجو أن يُسْمَحَ لي أن أقتبس بعض أقوال المؤرخين المحايدين ، والنقاد المنصفين ، أو أن أقتبس حتى

أقوال بعض الأعداء المعروف عنهم العداء الصريح لرسول الله العظيم محمد ﷺ ، ولو كانت شهادة الإنصاف والاعتراف بصدق النبوة ، وعظيم المكانة التي يدلي بها غير المسلمين لنبي الإسلام ، لا تصل إلى قلوب المنكرين ، فمن الممكن أن نقطع ، ونتأكد مِنْ أنهم مكابرون معاندون رافضون للحق مهما شهد به شهود الحق ، ودلت عليه أدلة الصدق . إنهم يرفضون نعمة الإيمان بحقائق الإسلام .

في الأيام الراهنة ، تم طبع كتاب بعنوان الـ١٠٠ أو أعظم مائة ، أو أعظم مائة شخص تأثيرًا في التاريخ البشري . ولقد كتب هذا الكتاب شخص يدعى : «مايكل هـ .هارت» وهو يوصف بأنه مؤرخ ، وعالم في الرياضيات ، وفي علم الفلك . ولقد بحث في جنبات التاريخ البشري للعثور على الرجال الذين كان لكل منهم أعظم تأثير في تاريخ البشر . وهو يحدد لنا في كتابه ذاك مائة شخص هم الأعظم تأثيرًا في التاريخ البشري ، ومن بينهم أسوكا (مؤسس أكبر إمبراطورية هندية في القرن الثالث قبل الميلاد) وأرسطو (أشهر فلاسفة اليونان) وبوذا (مؤسس البوذية) وكونفوشيوس (مؤسس الكونفوشية) وهتلر (مؤسس النازية الألمانية) ، وأفلاطون (من أشهر فلاسفة اليونان) وزاردشت (مؤسس الزرادشتية) . ومؤلف الكتاب لم يعطنا مجرد إحصاء بياني لأشهر مائة شخص في العالم من حيث تأثيرهم في الناس ، ولكنه أيضًا يضع تقويمًا لدرجة تأثيرهم ، ويرتبهم حسب درجة تميز كل منهم من واحد إلى مائة . وهو يوضح لنا الأسباب التي حدت به إلى هذا الترتيب . وليس مطلوبًا منا أن نتفق معه في كل ما ذهب إليه ، ولكننا لا نستطيع أن نمتنع عن الإعجاب بالبحث الذي قام به ذلك الرجل أو نمتنع عن الاعتراف بأمانته .

والاعتبار المثير للدهشة في اختياره للشخصيات الأكثر تأثيرًا في العالم هو أنه يضع نبينا الكريم ، النبيَّ محمدًا ﷺ باعتبار أنه «الأول» ، أول «العظماء المائة الأكثر تأثيرًا في العالم» مؤكدًا بهذا دون أن يدري الشهادة التي شهد بها الله لصاحب الوحي الإلهي الأخير إلى العالم ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى عن رسول الله ﷺ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب :٢١) .

عيسى عليه السلام هو رقم (٣) :

وإذ جعل «هارت» نبي الإسلام ﷺ في المرتبة الأولى ، فهو بطبيعة الحال قد أرضى المسلمين . ولكن اختياره ذاك قد سَبَّبَ صدمة لغير المسلمين وخصوصًا اليهود والمسيحيين الذين اعتبروا ذلك خللاً جسيمًا ، وخطأ عظيمًا . ما هذا؟ إذ جعل عيسى عليه السلام في المرتبة الثالثة ، وجاء موسى عليه السلام في المرتبة الأربعين!! .

هذا شأن يصعب عليهم كثيرًا أن يتقبلوه . ولكن ماذا يقول هارت في هذا الصدد تبريرًا لوجهة نظره؟ . . إنه يبرر وجهة نظره كما يلي إذ يقول : «حيث إنه يوجد على وجه التقريب من المسيحيين ضعف عدد المسلمين في العالم ، يجوز بطبيعة الحال أن يبدو غريبًا أن أعتبر محمدًا ﷺ في أعلى الدرجات ، وأولى بالتقديم من حيث التأثير في تاريخ العالم عن عيسى عليه السلام . ويوجد سببان رئيسان لهذا القرار . أولهما : أن محمدًا ﷺ قد لعب دورًا أكثر أهمية في تأسيس وتطوير الدين الإسلامي من الدور الذي لعبه عيسى المسيح عليه السلام في تطوير الديانة المسيحية . وعلى الرغم من أن سيدنا عيسى عليه السلام يعتبر مسئولاً عن الجوانب الرئيسة الأخلاقية في الديانة المسيحية (من حيث اختلافها عن الأخلاقيات اليهودية) ، فلقد كان القديس بولس هو المسئول الرئيس عن تطوير اللاهوت المسيحى ، وهو الذي وضع أسس الدعوة إلى الدين المسيحي ، والقديس بولس هو الذي كَتَبَ كمية كبيرة من العهد الجديد . ولقد كان محمد ﷺ هو المسئول الوحيد عن الإسلام في جانبه اللاهوتي ، وجانبه الأخلاقي على حد سواء . وبالإضافة إلى ذلك قام محمد ﷺ بالدور الرئيس في وضع أسس الدعوة إلى دينه الجديد ، ووضع قواعد العبادات في الإسلام . ذلك بالحرف الواحد هو ما كتبه «مايكل هارت» في كتابه عن المائة (ص٣٨، ٣٩) .

القديس بولس هو مؤسس الديانة المسيحية :

وطبقًا لما يقوله «هارت» ، يتقاسم القديس بولس والمسيح عليه السلام شرف تأسيس الديانة المسيحية ، بل يذهب أحيانًا إلى أن القديس بولس هو المؤسس الحقيقي للديانة المسيحية .

وأنا لا أستطيع أن أتفادى وأتجنب الاتفاق تمامًا مع «هارت» . فمن بين الكتب السبعة والعشرين التي يتكون منها العهد الجديد ، نجد أن أكثر من نصفها إنما هو من تأليف القديس بولس . ولو عقدنا مقارنة بين المسيح عليه السلام وبين القديس بولس في هذا الصدد ، سنجد أن المسيح عليه السلام لم يكتب كلمة واحدة من الكتب السبعة والعشرين التي يتكون منها العهد الجديد .

ولو أمكن لك – أيها القارئ الكريم – أن تضع يدك على الإنجيل المعنون بعنوان : «إنجيل الحروف الحمراء» ستجد كل كلمة يفترض أن المسيح نفسه كان قد نطق بها مكتوبة بالحروف الحمراء وبقية الكلمات مكتوبة بلون آخر هو اللون الأسود المعتاد . ولا تدهش عندما تكتشف أن أكثر من ٩٠٪ مما يسمى بالأناجيل وما يسمى بإنجيل عيسى مكتوبة بالحبر الأسود !

هذا هو الاعتراف الصحيح بشأن ما يطلقون عليه اسم الإنجيل . وعند المواجهة الفعلية مع الإرساليات المسيحية ستجد أنهم يقتبسون ١٠٠٪ مما يذكرونه باعتبار أنه نصوص من الكتاب المقدس مما كتبه القديس بولس .

لم يكن لسيدنا عيسى عليه السلام أتباع كثيرون في حياته :

قال عيسى عليه السلام : «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي» .

(يوحنا ١٤-١٥) .

وقال أيضًا : «فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعَلَّمَ الناس هكذا يُدْعَى أصغر في ملكوت السموات . . . . . .» . (متى ٥-١٩) .

وأي شخص مسيحي يجادلك وتسأله : «هل أنت تحافظ على الوصايا؟» سيجيبك بقوله : «لا!» ولو سألته أيضًا : «ولماذا لا تحافظ على الوصايا!» سيجيبك – لو كان قد درس كتابه المقدس – بقوله : «لقد دفنت الوصايا في الصليب»! وهو يعني بذلك أن الوصايا قد ضاعت بموجب قول أتباع المسيح بعد صلبه فيما يزعمون : «نحن نعيش الآن في عار!» .

وفي كل مرة تواجه فيها أي شخص مسيحي بما قاله ربه وسيده

المسيح عليه السلام ، فهو سيواجهك بشيء مما قاله بولس في رسائله إلى الكورنثيين ، أو أهل غلاطيه ، أو أهل إفسوس ، أو إلى الفليبيين أو غير ذلك . ولو أنك سألته : من هم أولئك الذين تذكرهم؟ سيقول لك : «بولس ، بولس ، بولس!» ولو سألته : «من سيدك الذي تتبع دينه؟» سيقول لك : «عيسى!» ولكنه دائمًا سيعارض أقوال عيسى عليه السلام بأقوال بولس الذي يؤمن بكل أقواله !

ولا يوجد مسيحي مثقف واحد يعارض حقيقة أن المؤسس الحقيقي للمسيحية هو القديس بولس . وبناء على ذلك وضع «مايكل هـ .هارت» المسيح عليه السلام بالكاد في المرتبة الثالثة .

لماذا إغضاب الزبون ؟

ووضع المسيح عليه السلام في المرتبة الثالثة على هذا النحو على يد مايكل هـ . هارت يضع أمامنا - نحن المسلمين- سؤالاً بالغ الأهمية ، هو : لماذا ينشر مؤلف أمريكي كتابًا يصل عدد صفحاته إلى (٥٧٢) صفحة في أمريكا ، ويباع في أمريكا بمبلغ خمسة عشر دولارًا للنسخة الواحدة ، ثم يجازف بأن يقول في كتابه كلامًا من شأنه أن يُغضب ويُثير حفيظةَ القراء الذين يتوقع أن يقوموا بشراء كتابه ذاك ؟ .

من الذي سيشتري هذا الكتاب؟ بالطبع ، لن يقوم بشراء نسخ هذا الكتاب باكستانيون ، ولا بنجلاديشيون ، ولا عرب ، ولا أتراك! وذلك فيما عدا بعض نسخ قليلة من الكتاب تباع هنا أو هناك ، نجد أن العدد الأكبر من الزبائن الذين سيشترون الكتاب سيكونون من بين ٢٥٠ مليون مسيحي وستة ملايين يهودي في أمريكا . لماذا إذن يغضب المؤلف زبائنه؟ ألم يسمع بالحكمة المشهورة التي تقول : «الزبون على حق!» لقد سمع بها طبعًا . فما هو السبب إذن في اختياره الجرىء بوضع محمد ﷺ على رأس قائمة المائة شخص الأكثر تأثيرًا في العالم؟ وقبل أن أنهي هذا الاقتباس من كتاب هارت سأقتبس اعتذاره الأخير عن قراره ذاك ، إذ يقول مايكل هارت بالحرف الواحد ما نصه : «إن اختيار محمد ﷺ ليكون على رأس قائمة أكثر الأشخاص تأثيرًا يجوز أن يدهش بعض القراء ،

ويجوز أن يثير التساؤل لدى أشخاص آخرين ، ولكنه ﷺ كان هو الرجل الأوحد في التاريخ الذي اكتمل له التوفيق التام على المستوى الديني وعلى المستوى الدنيوي» (كتاب المائة : ترتيب أكثر الأشخاص تأثيرًا في التاريخ- نيويورك : شركة هارت للنشر ، سنة ١٩٧٨ - ص ٣٣) .

مَن الذين كانوا أعظم قادة في التاريخ ؟

(مجلة تايم الأمريكية في ١٥ يوليه ١٩٧٤)

جعلت مجلة تايم العالمية الشهيرة هذا الموضوع هو موضوع الغلاف . وكان بداخل المجلة مقالات كثيرة تحت مختلف العناوين مثل : ما هي مقومات القائد العظيم؟ وأيضًا : على امتداد التاريخ ، من الذي يقدِّر عظمة العظماء ؟ وقامت مجلة تايم بسؤال مجموعة من المؤرخين وكبار الكُتَّاب ورجال الأعمال وغيرهم عن اختيار كل منهم في هذا الصدد . ووصف كل منهم مرشحه للعظمة في ضوء تقديره بطريقة موضوعية بقدر الاستطاعة البشرية ، طبقًا لدراسة كل منهم وما أتيح له من معارف سابقة .

مَنْ يعرف الدكتور سالازار ؟

اعتدت - وكان يسرني دائمًا - أن أصطحب أشخاصًا غير مسلمين في جولة داخل مسجد في هامبشاير الجنوبية ، وهو «مسجد الجمعة» في مدينة «ديربان» في جنوب إفريقيا .

وفي إحدى المناسبات كنت أستضيف اثنين من البرتغاليين ، هما : رجل وزوجته . وفي مرحلة من مراحل المناقشة معهما قال الرجل البرتغالي : «الدكتور سالازار كان أعظم رجل في العالم!» ولم أجادله في ذلك لأنني كنت أعرف القليل عن الدكتور سالازار فيما عدا أنه في وقت ما كان دكتاتورًا في البرتغال فعل الكثير من أجل أمته . وكان الزائر على كل حال يتكلم في حدود معارفه الخاصة به كمجرد وجهة نظر ، وحكم مسبق لديه .

محمد ﷺ يستحيل تجاهله :

يبدو أن أولئك الذين شاركوا في الدراسة التي أجرتها مجلة تايم عن العظماء في العالم لم يستطع واحد منهم أن يتجاهل محمدًا ﷺ .

ولقد سجل المؤرخ الأمريكي وليام ماكنيل ، وهو أستاذ التاريخ في جامعة شيكاغو بشهادته قائلاً بالحرف الواحد : «لو كنا نقوم بقياس القيادة قياسًا شاملاً سيكون لدينا أسماء هؤلاء القادة العظماء في التاريخ : المسيح عليه السلام ، بوذا ، محمد ﷺ ، كونفوشيوس ، وهم أعظم الأنبياء في العالم . . . . . .» .

ولم يخُضْ «ماكنيل» في التفاصيل ، ولم يُعطِ أي تفسير عن السبب في أنه قد ذكر عيسى عليه السلام أولاً قبل محمد ﷺ الذي جعله في المرتبة الثالثة ، وربما كان ذلك بسبب قوة العادة . ومن المحتمل جدًا أن «ماكنيل» مسيحي الديانة ، وعلى كل حال لن نناقشه في ذلك ثم يأتي : «جيمس جافين» الذي وصفه بأنه رجل القوات المسلحة الأمريكية ، وهو جنرال متقاعد ، يقول :

«من أبرز القادة الذين أحدثوا أعظم تأثير في العالم عَبْرَ الأجيال ، محمد ﷺ ، وعيسى المسيح عليه السلام ، وربما نعتبر أن منهم أيضًا «لينين» ، ومن الممكن أن نعتبر منهم أيضًا «ماو» . . وبالنسبة للقائد الذي نستطيع أن نستفيد من مميزاته الآن فأنا أختار «جون فيتز جيرالد كينيدي» .

ولا يقول الجنرال المتقاعد أكثر من ذلك ، ومع ذلك يلزم أن نوجه إليه التحية . إنها إيماءة عظيمة أن يكتب اسم محمد ﷺ قبل المسيح عليه السلام ، ولم يكن ذلك مجرد سهو أثناء الكتابة .

ونصل الآن إلى رأي «جول ماسرمان» المحلل النفسي الأمريكي وأستاذ علم النفس في جامعة شيكاغو ، وهو يعطينا ما لم يُعْطنا إياه المشاركون الآخرون بالرأي في هذا الموضوع . إنه يعطينا السبب الذي من أجله يختار أعظم القادة ، في نظره ، تأثيرًا في العالم في كل العصور .

إنه يريد منا أن نكتشف ما ينبغي أن نبحث عنه في الرجل الأعظم تأثيرًا في العالم ، وأن نكتشف المميزات التي تجعلنا نفرزه من بين سائر الناس الذين

عاشوا معه . ويجوز لنا أن نبحث عن وجود أي مجموعة من المميزات كما كان الشأن بالنسبة إلى «مايكل هـ . هارت» ، إذ كان يبحث عن الشخص الذي أحدث أعظم تأثير .

وعلى كل حال ، لا يريد منا «ماسرمان» أن نعتمد على الخيال أو على أحكامنا المسبقة ، بل هو يريد أن يضع لنا المقاييس الموضوعية لإصدار الأحكام قبل أن نخلع صفة العظمة على أي شخص . وهو يقول : إن القادة يلزم أن يؤدي كل منهم ثلاث وظائف في غاية الأهمية .

- **الوظيفة الأولى للشخص العظيم القائد هي أن يحقق مصلحة للجماعة التي يقودها ......**

إن القائد - أيًا كان - يجب أن يكون مهتمًا بمصلحتك لا أن يكون مهتمًا بمسألة حَلب الأبقار ، أو كسب الأموال إشباعًا لمطامعه - مثل القس المدعو «جيم جونز» بمدينة جونستان في ولاية جيانا ، الذي ذاعت شهرته كداعية للانتحار الجماعي . وأنتم ستتذكرونه باعتبار أنه الرجل الذي ارتكب في خاتمة حياته الانتحار الجماعي مع ٩١٠ شخص من أتباعه في وقت واحد .

لقد كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تقتفي أثره ، وكان على وَشْك أن يتم القبض عليه لارتكابه بعض المخالفات القانونية ، ولكن ، قبل أن يتم القبض عليه رأى أنه من الحكمة أن يتولى إعدام نفسه بنفسه ، مع إعدام كل أتباعه في الوقت نفسه ، حتى لا يبقى منهم أحد لكي يشهد ضده . وخلط مشروب الليمون بسم السيانيد ، وأوعز إلى أتباعه أن يشربوه ، وفعلوا ذلك ، وماتوا كلهم مجللين بالعار ، وفي الوقت نفسه اكتشفت السلطات أن القس المدعو «جيم جونز» كان قد ابتز خمسة عشر مليونًا من الدولارات ، وأودعها في حسابه في بعض البنوك في أنحاء مختلفة من العالم . وكان ضحاياه بمثابة أبقار يقوم هو بابتزازها ، وكان يبتز أموالهم لكي يشبع شهوته في الحصول على المال الوفير إرضاء لنهمه وطمعه . والبطل في نظر «ماسرمان» يلزم أن يكون موجودًا لكي يفيد أتباعه وأعوانه دون أن يكون كل هدفه هو منفعته الشخصية .

● **الوظيفة الثانية هي أن القائد الحقيقي يجب أن يوفر لأتباعه نظامًا اجتماعيًا يشعر فيه الناس بالأمن :**

على النقيض من الماركسيين ، والفاشيين ، والنازيين ، والنازيين الجدد ، والأشكيناز ، والصهاينة ، وكل من نهج نهجهم ممن لم يذكرهم ماسرمان صراحة في مقالته بمجلة تايم . ولكن معتقدات ومشاعر ماسرمان واضحة كل الوضوح في هذا الصدد . إنه يبحث عن قائد سيقدم لقومه نظامًا اجتماعيًا يوفر حرية النفس لكل فرد ، ويحرر الفرد من الأنانية والجشع والتمييز العنصري ، لأن هذه المذاهب بموجب تكون اللفظ الذي تتخذ منه اسمًا لها يحمل كل منها بداخله بذور دماره وانهياره .

ويصور «عبد الله يوسف على» المجتمعات الفاسدة التي ينبغي ألا ينسج القائد الناجح نسيج مجتمعه على منوالها بقوله :

«لا يزال لدينا - مع كل الأسف - كثير مما يؤسف وكثير من الخطيئة ، وانعدام العدالة ، والظلم ، والممارسات الخاطئة ، والكراهية ، ولا تزال ممارسة العدوان على الآخرين تفضي إلى موت الضمير ، وتنهب فتات الخبز حتى لا تقتات بها أرواح الكادحين ، وتسلب الشفقة من القلوب عندما يتم سحق لحوم البشر في تراب الأرض . ولا يزال الجهل ينفخ في أبواق الجاهلين العالية الضجيج لكي يتم طمس وتشويه الحكمة الحقيقية . ولا يزال بعض الناس يسوقون أمامهم العبيد .... معارضين بذلك القوانين التي حرمت العبودية والاستعباد ! ولا يزال الطمع يلتهم الضعفاء ، ويمسك بهم بمخالب الجشع ..... بل هنالك ما هو أكثر من ذلك .... ضاع صوت الفرد في ضجيج الغوغائية لدى الدهماء ، ولدى الحشود التي تهتف هتافات مجنونة بصرخات الحروب الجديدة ... إنها هي نفس الحماقات القديمة التي طال استنكارها» .

● **الوظيفة الثالثة للقائد الحقيقي هي أن يكون قادرًا على أن يمد أتباعه بمجموعة متسقة من العقائد الصحيحة :**

ومن السهل أن يتحدث أي شخص عن أخوة الإيمان بعقيدة واحدة ، أو عن

الأخوة البشرية ، ولكن نجد في جمهورية «جنوب إفريقيا» اليوم ألف نِحلة دينية ونحلة ، ونجد التمييز العنصري بين ذوي البشرة البيضاء (المنحدرين من أصول أوربية) ويبلغ عددهم ثلاثة آلاف شخص وبين السود (المنحدرين من أصول إفريقية) .

وكنائس ذوي البشرة البيضاء تُفْرخ الآن كثيرًا من القساوسة ذوي البشرة البيضاء بسرعة فائقة ، ولكن طوال ما يزيد على ثلاثمائة سنة من الغزو الأوربي لأقطار إفريقية لم يعملوا على تخريج وترسيم قسيس واحد من ذوي البشرة السوداء . وحتى الآن ، لا يستطيع ذوو البشرة السوداء ، وذوو البشرة البيضاء ، والملونون ، والهنود أن يُصَلّوا داخل كنيسة واحدة في معظم الكنائس الإصلاحية الهولندية . والكراهية بين أصحاب المذاهب والملل المسيحية قد وصفها بدقة تامة الإمبراطور المسيحي «جوليان» عندما قال :

«لا توجد حيوانات مفترسة متوحشة تناصب الإنسان العداء بقدر ما تناصب المذاهب المسيحية بعضها البعض» . (أورده : سيد أمير علي في كتابه : روح الإسلام ص ١١١) .

وباستخدام المعايير الثلاثة السابق ذِكْرُها يبحث ويحلل «ماسرمان» شخصيات شهيرة مثل : لويس باستير ، وسالك ، وغاندي ، وكونفوشيوس ، والإسكندر الأكبر ، وهتلر ، وبوذا ، وعيسى عليه السلام والأنبياء الآخرين عليهم السلام ، ويصل في نهاية بحثه وتحليله إلى أن يقول :

«ربما كان أعظم قائد في كل عصور التاريخ هو محمد ﷺ ، فهو وحده الذي جمع المزايا الثلاث ، والوظائف الثلاث للقائد ، وكان موسى عليه السلام أقل منه درجة» .

ونحن لا نستطيع أن نتفادى الإعجاب بنزاهة وإنصاف وموضوعية «ماسرمان» ، فهو ، وهو اليهودي لم يتردد في أن يعتبر «أدولف هتلر» أيضًا واحدًا من عظماء التاريخ الذين عرض لهم بالدراسة كواحد من القادة الكبار . وكان جنسه الآري ، وكانت الأمة الألمانية العظمى التي يصل تعدادها إلى تسعين

مليون نسمة آنذاك ، وكانت الأمة الألمانية كلها مقتنعة كل الاقتناع مستعدة كل الاستعداد أن تمشي وراءه حتى تبلغ مصيرها المحتوم أو دمارها التام . إن هتلر للأسف الشديد قد قاد أمته إلى دمار أكيد .

وليس هتلر هو موضوع بحثنا . موضوع بحثنا هو البحث عن السبب الذي جعل ماسرمان ، وهو يهودي أمريكي ، ومأجور يعمل في خدمة الحكومة الأمريكية ، يعلن إلى مواطنيه الأمريكيين ، الذين يبلغ عددهم ما لا يقل عن مائتي مليون نسمة من المسيحيين واليهود ، أن أعظم قائد في كل عصور التاريخ لم يكن عيسى عليه السلام ولم يكن موسى عليه السلام ، ولكن أعظم قائد في كل عصور التاريخ في نظر ماسرمان هو محمد ﷺ ، هذا هو ما يلزم بحثه .

ماذا يقول المتشككون ؟

إن مايكل هـ . هارت قد وضع محمدًا ﷺ كرقم (١) في قائمته ، وهو قد وضع إلهه ومُخَلِّصَه عيسى عليه السلام باعتبار أنه رقم (٣) . لماذا؟ هل هو مرشُوٌّ أعطاه أحد رشوة كبيرة لكي يفعل ذلك ؟

وليام ماكنيل يعتبر أن سيدنا محمدًا ﷺ يستحق من التكريم والتعظيم ما يجعله يضمه إلى قائمة أول الأسماء الثلاثة للشخصيات المؤثرة في التاريخ . لماذا؟ هل كان وليام ماكنيل مَرْشُوًّا؟ جيمس جافن يضع اسم سيدنا محمد ﷺ قبل اسم المسيح عليه السلام . لماذا؟ هل كان جيمس جافن مَرْشُوًّا؟ .

جيمس ماسرمان قد حكم أيضًا بأن سيدنا محمدًا ﷺ هو الأول عند ترتيب أولويات الأشخاص الأكثر تأثيرًا في التاريخ ، بينما وضع نبي اليهودية التي يعتنقها ماسرمان ، موسى عليه السلام ، باعتبار أنه الثاني بعد سيدنا محمد ﷺ لماذا؟ هل كان جيمس ماسرمان مَرْشُوًّا ؟

ويقول توماس كارلايل في هذا الصدد : «هل يجوز لنا أن نفترض أن كل هذا المديح لنبي الإسلام محمد ﷺ ، كان يقوم على أساس من القدرة على الاحتيال والشعوذة ، والقدرة على خداع عقول الناس . . . .؟ إنني ، من جانبي ، لا أستطيع أن أقبل مثل هذا الافتراض بأي حال من الأحوال . . . . .

وإن الإنسان لابد أن يجد نفسه في حيرة ، ويجد نفسه عاجزًا عن تفسير حالة البشرية لو انتشرت عقائد طائفة الكويكرز مثل انتشار الإسلام في العالم» .

ويستطرد كارلايل ليقول : «وبعد ذلك ، تَنْصَبُّ السخريات على أي شخص يقول قولة حق وصدق عن محمد ﷺ أو عن الإسلام كما لو كان مَرْشُوًّا من العرب! إنهم يبالغون في قدرة العرب على ذلك . وأنا أكرر القول بأن هذا ممكن (من الناحية النظرية) ولكنه مستحيل (من الناحية العملية) .

وأثناء الحرب العالمية الثانية ظهر في دولة النرويج «كويسلنج» واحد . ولقد حوكم كويسلنج بتهمة الخيانة وتم إعدامه [1] . وليس من المعقول أن تكون أمريكا وأن يكون الغرب كله من نسل كويسلنج لكي يقع تحت تأثير الدولارات البترولية القادمة من الشرق الأوسط في مقابل الاعتراف بعظمة نبي الإسلام ﷺ وفي مقابل احترام الإسلام والمسلمين . ولا يليق أن تتجه الاتهامات إلى المفكرين الشجعان المخلصين بسبب أحكامهم العادلة المنصفة لنبي الإسلام ﷺ ، يجب علينا جميعًا أن نحترمهم .

إننا نستطيع أن نستخلص بحق أن الله الرحيم الذي يعلم دوام العلم الجهود المخلصة لعباده إنما يحقق وعده الإلهي لنَبِيِّه المختار محمد ﷺ عندما خاطبه في القرآن الكريم ، إذ قال له سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح :٤) .

وهذا الوعد الإلهي أن يرفع الله ذكر خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يمكن التعبير عنه بعبارات أخرى مثل :

١- ألم نجعل ذِكْرَكَ ذائعًا بين الناس على تعاقب الأجيال؟

ب- ألم نجعل اسمك معروفًا مشهورًا لدى كل الناس ؟

جـ- ألم نجعل لك شهرة واسعة النطاق في كل أنحاء العالم؟

---

(١) المعنى هو أن القائد الذى يخدع شعبه وأتباعه، يكتشف الناس حقيقة خداعه. ولم يكن نبي الإسلام ﷺ مجرد شخص بارع خدع قومه من العرب السذج كما يشيع المتعصبون ضد الإسلام ذلك، بل كان ﷺ نبيًا صادق النبوة والمنصفون للنبي ﷺ جديرون بالاحترام ولا يستحقون أي اتهام . (المترجم).

الأصدقاء والأعداء ، والعلماء المنصفون من أتباع الأديان الأخرى ، مجبرون على أن يُزْجوا المديح والثناء والاحترام لنبي الإسلام العظيم ﷺ كما لو كانوا مسوقين إلى ذلك بقوة قاهرة خفية . ولكن الله العلي القدير يأمر مخلوقاته جميعًا حتى الشيطان نفسه ، ليكون في خدمته ، ولتحقيق مشيئته كما حدث ذلك بالنسبة إلى المسيح عليه السلام كما نجده في إنجيل متى (٤ : ١-١١) . حتى الشيطان نفسه يؤدي دوره المرسوم له كما يشهد بذلك الإنجيل في الموضع المشار إليه .

والبروفيسور «ك . راماكريشنا» وهو فيلسوف هندوسي في كتابه الموسوم باسم : «محمد نبي الإسلام ﷺ » يقتبس بعض أقوال كبير الشياطين ، أدولف هتلر لكي يبرهن على تفرد محمد ﷺ بالعظمة المنقطعة النظير .

إن البروفيسور راماكريشنا مثله في ذلك مثل جولز ماسرمان الذي عمد إلى قياس عظمة محمد ﷺ وفقًا لثلاثة معايير (انظر الملحق رقم (C) - ص٦٣) قد وجد في أقوال هتلر ، في كتابه المعنون بعنوان «كفاحي» ثلاثة أوجه لجوهر العظمة ، أو ثلاثة مقاييس لعظمة العظماء ، ومن النادر أن تتاح مجتمعة لشخص واحد كما عثر عليها مجتمعة لنبي الإسلام ﷺ .

يقول أدولف هتلر في كتابه كفاحي : «من النادر أن يكون صاحب نظرة عظيمة قائدًا عظيمًا ، والشخص الذي يستطيع تحريك حماس الجماهير من النادر أن يجمع بين هاتين الميزتين . إنه قائد جدير بالقيادة ، ذلك أن القيادة تعني القدرة على تحريك الكتل الضخمة من الجماهير . وموهبة ابتكار الأفكار لا يوجد رابطة تربطها بالقدرة على القيادة» .

ثم يستطرد هتلر قائلاً : «بعد أن فصل بين القدرة على القيادة والقدرة على ابتكار الأفكار الجديدة» : «والاتحاد أو المزج بين صاحب النظرية الجديدة ، والشخص القادر على تنظيم الجماهير ، والقائد القادر على قيادة الجماهير ظاهرة نادرة الحدوث في العالم ، وفي ذلك تكمن عظمة العظماء» .

ويعقب البروفيسور «راماكريشنا راو» على ذلك النص الذي اقتبسه عن هتلر بقوله : «**في شخص نبي الإسلام ﷺ شاهد الناس فعلاً هذه الظاهرة النادرة الحدوث ، ظاهرة اجتماع القدرة على صياغة أفكار ونظريات جديدة ، وظاهرة القدرة على تحريك الجماهير ، وظاهرة القدرة على القيادة الفعلية للجماهير تجتمع على وجه الأرض لأول مرة في شخص حقيقي من لحم ودم يمشي على قدميه فوق سطح الأرض ألا وهو نبي الإسلام ، محمد ﷺ** » .

مشاركة في نفس الرأي :

وقبل أن يتهم أحد البروفيسور «راماكريشنا» بخطأ الرأي أو بالرشوة ، نقدم بين يدي القارئ الكريم عددًا قليلاً من بين كثير ممن أعجبوا بعظمة نبي الإسلام محمد ﷺ :

(١) «كان محمد ﷺ هو روح الرحمة ، ولقد ظل تأثيره باقيًا خالدًا على مر الزمان ، لم ينسه أحد من الناس الذين عاشوا حوله ، ولم ينسه الناس الذين عاشوا بعده» .

(البروفيسور الهندي : ديوان شاند شارما في كتابه المعنون بعنوان : «أنبياء من الشرق» - كالكوتا ١٩٣٥- ص ١٢٢) .

(٢) «بعد مضي أربعة أعوام لوفاة الإمبراطور ستنيان في سنة ٥٦٩م ، وُلِدَ [١] في مكة في شبه الجزيرة العربية الرجل الذي مارس أعظم تأثير على كل الرجال في العالم» .

(دكتور جون وليام درابر في كتابه : «تاريخ التطور الفكري في أوروبا – لندن ١٨٧٥) .

---

(١) أثبت العلامة محمود باشا الفلكى أن مولده ﷺ كان فى يوم ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ فى بحثه «التقويم عند العرب قبل الإسلام» وقدمه إلى «الأكاديمية البلچيكية فى بروكسل» بالفرنسية. فووفق عليه ونشر ضمن بحوثها العلمية «المتوجة».

(٣) «أشك في إمكانية وجود رجل تغيرت الظروف من حوله ، واستطاع أن يغير نفسه ليتوافق مع تغير الظروف من حوله على هذا النحو الذي تحقق لمحمد ﷺ » . (والمعنى أن محمد ﷺ قد نجح نجاحًا تامًا في مواجهة أصعب الظروف ونجح نجاحًا تامًا في التغلب على كل العقبات التي اعترضت طريق رسالته) .

(ر .ف .ك . بودلي في كتابه : «الرسول» لندن ١٩٤٦- ص٩) .

(٤) «لقد عكفت على دراسة كل تفاصيل سيرته - إنه الرجل الفذ العظيم- وهو من وجهة نظري غير مُعَادٍ وغير معارض للمسيح عليه السلام ومن اللازم أن نطلق عليه اسم منقذ البشرية» .

(جورج برنارد شو في كتابه «عظماء الإسلام- المجلد الأول رقم ٨١٩٣٦) .

(٥) «بمصادفة فريدة كل التفرد في التاريخ يعتبر محمد ﷺ مؤسسًا لأمة من الأمم ، ومؤسسًا لإمبراطورية من أكبر الإمبراطوريات ، ومؤسسًا لدين من أعظم الأديان» .

(ر .بوسويرث سميث في كتابه : **«محمد ﷺ والديانة** المحمدية- ١٩٤٦) .

(٦) «كان محمد ﷺ هو الشخصية الأكثر نجاحًا بين كل الشخصيات الدينية» .

(الإنسيكلوبيديا البريطانية - الطبعة الحادية عشرة) .





الفصل الثاني

فيما مضى من التاريخ

ليس من الصعب أن نذكر عشرات المقولات التي تمتلئ بالمديح لدى المعجبين والمؤرخين الذين عرضوا لحياة سيدنا محمد ﷺ بالدراسة والنقد، وذلك بالرغم من موضوعيتهم الصارمة، وعقولهم الجامدة الحاقدة التي كانت تجنح أحيانًا إلى شيء من التحامل الناجم عن الحقد أو سوء الفهم، وندع ذلك كله لكي نعود إلى ما مضى من التاريخ.

لقد كان ذلك يوم الجمعة الثامن من شهر مايو عام ١٨٤٠، أي منذ حوالي مائة وخمسين عامًا مضت[١]، عندما كانت أي كلمة طيبة عن محمد ﷺ تعتبر خطيئة لا تغتفر، وعندما كان الغرب المسيحي قد طال تدريبه على أن يكره محمدًا ﷺ، وأن يكره دينه بنفس الطريقة التي كانت تدرب بها الطلاب في موطني، في جمهورية جنوب إفريقيا، على أن تكره الناس ذوي البشرة السوداء. في ذلك الوقت، قَدَّمَ «توماس كارلايل»، وهو واحد من أعظم المفكرين في القرن الماضي، سلسلة من المحاضرات تحت عنوان: «الأبطال وعبادة البطل».

تطوير المرض:

واستعرض كارلايل ذلك الحكم المسبق الأعمى لدى قومه في بداية حديثه إليهم. وأشار كارلايل إلى واحد من عمالقة الأدب في الغرب وهو الأستاذ الهولندي «هوجو جرتيوس» الذي كان قد كتب مقالة مليئة بالمطاعن المريرة المفتراة ضد نبي الإسلام ﷺ. وكان «هوجو جرتيوس» قد زعم كذبًا أن النبي ﷺ كان قد درب مجموعة من الحمائم على أن تلتقط بعض حبوب

(١) حين تأليف هذا الكتاب.

البازلاء من أذنه لتعتاد الحمائم النزول فوق كتفيه ليستطيع بهذه الخدعة أن يوهم أتباعه أن الحمائم تجيء إليه بالوحي من الله ، ولم يكن الله يوحي إليه حقًا بأي شيء مما كان يكتبه محمد ﷺ بعد ذلك في القرآن زاعمًا لقومه أنه وحي أوحاه الله إليه . وربما كان «هوجو جرتيوس» قد استعار هذه الفرية على نبي الإسلام ﷺ من قراءته في كتابه المقدس قول إنجيل «متى» ، إذ يقول بالنسبة إلى المسيح عليه السلام ما يلي بالحرف الواحد : «فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء . وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيًا عليه» .

(إنجيل متى ٣ :١٦) .

وعندما طلب شخص اسمه «باكوك» ، وكان متفتح الذهن مثل توما المتشكك (في الجملة الخامسة والعشرين من الإصحاح العشرين من إنجيل يوحنا» عندما طلب دليلاً على تدريب محمد ﷺ للحمائم أن تنزل على كتفيه لكي تلتقط الحبوب من أذنيه أجابه جروتيوس بقوله : «**لا يوجد دليل!**» .

أين الدليل على صحة الزعم ؟

إن جروتيوس بالضبط كان يشعر أنه يجب أن يخترع هذه القصة لكي يدخل السرور إلى آذان مستمعيه . كانت هذه القصة المفتراة بالنسبة **إليه وإلى** مستمعيه أقرب إلى الصدق من أن يكون **الوحي الإلهي قد حدث فعلاً بالنسبة** إلى سيدنا محمد ﷺ . **ولقد كان مثل هذا الافتراء الخرافي يثقل على قلب** كارلايل ويفزعه لدرجة أن أخذ يصرخ في مستمعيه قائلاً لهم بالحرف الواحد :

«هذه الأكاذيب التي أملاها التعصب المقصود عن عمد بشأن هذا الرجل إنما هي عار وشنار علينا نحن أنفسنا ، ولا تشينه بأيّ حال من الأحوال!!» .

النبي البطل :

لقد كان كارلايل رجلاً يتصف بالعبقرية ، ووهبه الله القدرة على النفاذ إلى حقائق الأمور ، والقدرة على توضيح تفاصيل الأفكار . ولقد كان يريد بطريقته الفذة الماهرة فى تناول الأمور أن يضع الحقائق والمعايير في وضعها الصحيح .

وخطط أن يلقي على الناس محاضرة ، واختار لتلك المحاضرة موضوعًا مثيرًا يشد الانتباه هو «البطل عندما يكون نبيًا من الأنبياء» . واختار كارلايل أن يكون البطل النبي موضوع دراسته هو محمد ﷺ وليس موسى عليه السلام أو داود أو سليمان أو المسيح عليهم السلام . إنه محمد ﷺ ؛ ولكي يرضى كارلايل غرور مواطنيه من المسيحيين الإنجليكانيين المنتمين إلى الكنيسة الإنجليكانية في إنجلترا ، اعتذر عن اختياره ذاك بقوله لهم : «وحيث إنه لا يوجد أي خطر يتمثل في أن نصبح أو يصبح أي واحد منا من أتباع الديانة المحمدية ، فأنا أعتزم أن أقول كل ما يمكن أن أقوله بحق وصدق عن مزاياه» .

وبكلمات أخرى ، كان هو ، وكان مستمعوه ، وهم من صفوة المسيحيين متحررين من خوف التحول إلى اعتناق الإسلام ، وكانوا جميعًا دون استثناء يستطيعون إزجاء بعض الأحكام المنصفة بالنسبة إلى محمد ﷺ . ولو كان عنده أي مخاوف بشأن قوة إيمانهم لما قام بهذه المخاطرة .

وفي بيئة تمتلئ عن آخرها بالكراهية والحقد نحو أي شيء إسلامي ، وبالنسبة إلى جمهور من المستمعين تسيطر عليه الشكوك والمشاعر العدوانية ، استطاع كارلايل أن يطلق سراح كثير من الحقائق المضيئة المشرقة المشرفة المتصلة بالبطل الذي اختاره مثالاً لبطولة الأنبياء في مجال النبوة ، وكيفية أداء الأنبياء لرسالة السماء في شخص سيدنا محمد ﷺ . والمدح ينبغي أن لا يحرم منه من يستحق المدح . وهذا على وجه التحديد هو ما يعنيه اسم «محمد» ﷺ . إن لفظ محمد يعني بالضبط الشخص الجدير بالحمد والمدح والثناء . وهنالك مواضع في محاضرة كارلايل عن نبي الإسلام ﷺ ، وهنالك تعبيرات وردت على لسان كارلايل في هذا الصدد التي ربما لا تُرضي المسلم المفعم القلب بالإيمان بعقائد الإسلام ، ولكن الإنسان المسلم يمكن له أن يتغاضى عنها لاحتمال وجود قصور في فهم كارلايل لها خصوصًا عندما نضع في اعتبارنا أن كارلايل باجترائه على إزجاء الإعجاب والمدح لسيدنا محمد ﷺ ، فلقد كان في حقيقة الأمر يمشي فوق حبل مشدود من الحبال الثقافية . والمشي فوق حبل

ثقافي مشدود محفوف دائمًا بالمخاطر ، ولقد نجح كارلايل في المشي على ذلك الحبل الثقافي المشدود بوجه عام نجاحًا منقطع النظير .

لقد أزجى كارلايل إلى بطلنا كثيرًا من المديح المتوهج الحماسي بأسلوبه البارع العبقري ، ودافع عنه كارلايل دفاعًا مخلصًا ضد الاتهامات الزائفة وضد الافتراء الزائف الذي مارسه الغرب المسيحي لتشويه صورة النبي ﷺ تشويها لا أساس له من الصحة ، بالضبط كما فعل النبي ﷺ في دفاعه عن المسيح عليه السلام ودفاعه عن أم المسيح عليها السلام .

وفيما يلي نماذج مما قاله كارلايل حرفيًا في هذا الصدد ، قال :

أمانته وإخلاصه :

١- أ- «كانت أمانة الرجل العظيم وإخلاصه في حملها من النوع الذي لم يكن يستطيع أن يجيز فيه لنفسه أن يتحدث عنه أو يُطريه ، بل إنه على النقيض من ذلك كان كل وعيه منصرفًا إلى الحذر من أن تتسلل إلى نفسه ذرة من ذرات انعدام الأمانة ، وأي رجل ذلك الرجل الذي يستطيع أن يمشي كما ينبغي لمدة يوم واحد ، وهو يحمل فوق كتفيه مسئولية الحفاظ على شريعة الله الحقيقية؟! لا ، إن الرجل العظيم لم يكن يفاخر بنفسه أبدًا باعتبار أنه مخلص وأمين في أداء رسالته إلى الناس . وأكثر من ذلك فهو لم يسأل نفسه ما إذا كان يتصف بالأمانة والإخلاص . وأنا أميل إلى القول بأن أمانته وإخلاصه في أداء رسالته من الله إلى الناس لم ينبعا من داخل نفسه ، بل كانت أمانته وكان إخلاصه من الله وبقدرة الله وإرادته ، ولم يكن محمد ﷺ يستطيع أن يحيد عن أن يكون مخلصًا في أداء رسالته من الله إلى الناس» .

(الأبطال وعبادة البطولة - ص٥٩) .

ب- «نَفْسٌ عظيمة تؤثر الصمت . لقد كان ﷺ واحدًا من الناس الذين يستحيل أن يكون الواحد منهم غير جاد . إنه شخص قد سمت نفسه لتكون نفسًا أمينة مخلصة . وبينما يمشي الآخرون في غمار الأنماط السلوكية المألوفة بين الناس وما يشاع بين الناس من مجموع الأنماط السلوكية في الأفعال

والأقوال ، والسرور يغمر نفوسهم بذلك النوع من أنماط السلوك الشائعة بين الناس ، كان محمد ﷺ يعيش حياته منعزلاً عن الناس[1] ، متفردًا مبتعدًا بنفسه عن ممارساتهم اليومية الممجوجة الشائعة بينهم يتأمل حقائق الأمور . . . . . .

ومثل هذا الإخلاص ، كما اتفقنا على تسميته ، كان في حقيقة أمره شأنًا إلهيًا اقتضته مشيئة الله وإرادته ، ليكون صفة يتصف بها هذا النبي العظيم ﷺ . إن كلمة مثل هذا الرجل إنما هي صوت ينطلق من صميم قلب الطبيعة ذاتها . وينبغي على الإنسان أن يصغي إلى هذا الصوت وحده وأن يطيعه ، ولا يصغي ، ولا يطيع أي صوت آخر . . . . لأن كل صوت آخر إنما هو صوت عصف الرياح لا فائدة فيه بالمقارنة بالصوت النابع من صميم قلب الطبيعة»

(الأبطال وعبادة البطولة - ص ٧١) .

وفي غضون محاضرته الطويلة ، لم تتح الفرصة بالنسبة إلى كارلايل لكي يوضح مصادر ملاحظاته التي ساقها في تفاصيل محاضرته تلك . ويجوز لي أن أقدم بين يدي القارئ الكريم حادثة من الحوادث الواقعية التي تعبر عن أعلى درجات الإخلاص والأمانة في أداء محمد ﷺ للوحي الذي أوحاه الله إليه في القرآن الكريم ، حتى لو كان ذلك الوحي الإلهي الذي أوحاه الله إليه يكشف عن سمة من سمات الضعف الإنساني ، التي عرضت في حياة النبي ﷺ وعاتبه الله عتابًا رقيقًا بشأنها .

عتاب من الله وتحذير لرسول الله ﷺ كما أنزلهما الوحي الإلهي في القرآن الكريم:

كان ذلك في الأيام الأولى من بدء رسالة النبي ﷺ ، وتبليغه رسالة ربه إلى قومه في مكة . ولقد كان محمد ﷺ منهمكًا في محاولة إقناع جماعة من

(١) لعله يريد الخلوة التي كان النبي ﷺ يخلو بنفسه فيها، ويتفكر في ملكوت الله عز وجل حتى نزل عليه الوحي .. أما بعد بدء الرسالة فلم يكن النبي ﷺ منعزلاً عن الناس، بل كان معهم يدلهم ويرشدهم لأمور دينهم ودنياهم.

زعماء مكة (بينهم أُبَيُّ بن خلف ، وكان آنذاك زعيمًا مرموقًا) بتعاليم دعوة الإسلام ، وكان يبدو أن أحدهم (وهو أُبَيُّ بن خلف) كان يبدي كثيرًا من الاهتمام ، ويبالغ في الاستفسار والإصغاء لما يقوله النبي ﷺ . وفي هذه الأثناء جاء رجل أعمى ، هو عبد الله ابن أم مكتوم ، يريد أن يقطع النبي ﷺ كلامه مع أعضاء ذلك الوفد من أشراف مكة ، لكي يشرح له شيئًا من كلام الله في القرآن الكريم ، ولم يرد رسول الله ﷺ بأي كلمة على عبد الله ابن أم مكتوم ، ولكنه قطب جبينه ، وبدا أنه مستاء من مقاطعة عبد الله ابن أم مكتوم لحديثه مع وفد أشراف مكة ، وكأنما كان تقطيب جبين النبي ﷺ يعني الاعتراض على عبد الله ابن أم مكتوم ناعيًا عليه عدم الصبر ، وكأنه لا يرى ولا يدرك أنه بتعجله مقاطعته حديث النبي ﷺ ربما يضيع فرصة أن يؤمن بعض أشراف مكة برسالته ﷺ . وأنا أعتقد أن أي رجل آخر من بين الخطاة أو القديسين لم يكن ليُسَاءل ، أو يعاتبه الله - سبحانه وتعالى- لمثل هذه الهَنَة الطفيفة ، ولكن لم يكن ذلك هو الشأن بالنسبة إلى محمد ﷺ . ألم يختره الله ويكرمه بتلك المنزلة الرفيعة من الخلق الكريم التي سجلها له القرآن الكريم في قوله الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم :٤)؟

عبس :

وبينما كان ﷺ منهمكًا في غمار مناقشته مع أشراف مشركي مكة ، أنزل الله جبريل عليه السلام ، وهو الملك المكلف بالوحي الإلهي ومعه هذا العتاب الإلهي للنبي ﷺ من أجل تلك الهنة التي سبق أن أشرنا إليها ، وتمثل ذلك العتاب الإلهي في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) ﴾ (عبس :١ :٤) .

لقد كان من الطبيعي أن النبي الكريم ﷺ لم يكن يحب أن يقاطع حديثه أحد . وربما أصاب مشاعر الرجل الأعمى شيء من الأذى . ولكن النبي العظيم ﷺ ، الذي كان قلبه المفعم دائمًا بالعطف والحنو على الفقراء والبائسين ، تلقى من الله المزيد من النور الإلهي ليزداد عطفه عطفًا وحُنُوُّه حُنُوًّا على الفقراء والبائسين . ولم يأنف ، ولم يتردد ﷺ في أن يعلن إلى البشرية

جمعاء على مر الزمان ، وتوالى الأجيال ، أنه قد أخطأ دون أي قَصْد ، أو تعمد للخطأ ، إذ أعلن للناس عتاب ربه لاهتمامه بشأن عِلْية القوم من الأغنياء ، والأقوياء ، وانصراف اهتمامه عن الفقراء والضعفاء . كانت لفتة إلهية عظيمة المعنى والمغزى ، وكانت شجاعة أدبية لم تخف من اللفتة الإلهية التي أزجاها الله إليه في آيات صدر بها سورة عبس أي معنى أو أي مغزى . أعلن النبي الكريم ﷺ الآيات التي عاتبه فيها الله لخطأ طفيف لم يكن متعمدًا ، أعلنه إلى البشرية كلها ، ورجع عن الخطأ رجوعًا تامًا إذ كان يخاطب عبد الله بن أم مكتوم بعدها بقوله : مرحبًا بمن عاتبني بشأنه ربي! أيُّ تكريم للفقراء والضعفاء والمساكين أقوى من هذا التكريم الإلهي؟! وأيُّ صراحة أقوى من هذا الصدق النبوي! وعندما كان النبي ﷺ يغادر المدينة لشأن مّا ، كان يستخلف هذا الرجل ، عبد الله ابن أم مكتوم ليكون هو حاكم المدينة المنورة . وحدث ذلك مرتين وليس مرة واحدة . هكذا كان إخلاص وأمانة البطل النبي الذي اختاره كارلايل موضوعًا لدراسته ، وهكذا كان صدقه ، وهكذا كانت أمانته .

وفاؤه :

٢- كان وفاؤه ﷺ وفاءً لا تَحُدُّهُ حدود .... ﷺ لم ينس أبدًا زوجته الطيبة الكريمة الأخلاق ، خديجة . فبعد وفاتها - رضى الله عنها- بوقت طويل ، سألته زوجته الشابة «عائشة» ، وكانت امرأة تشعر بمكانتها المتميزة بين نساء النبي ﷺ ، سألته يومًا قائلة له : ألست أنا الآن أفضل من خديجة؟ . لقد كانت أرملة تقدم بها العمر ، وكانت قد فقدت رونق شبابها . ألست تحبني أنا أكثر مما كنت تحبها؟ فقال لها : «لا ، والله . لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وأوتني إذ رفضني الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، ورُزِقْتُ منها الولد[1] وحُرِمتموه منِّي» .

(الأبطال وعبادة البطولة ص ٧٦) .

---

(١) حرصنا على عدم التغيير في رد النبي ﷺ على سؤال السيدة عائشة - رضى الله عنها- وفقًا للمراجع الإسلامية، نزولاً على مقتضيات الترجمة عن مؤلف غربي، وإن كان المعنى واحدًا في الحالتين . (المترجم).

لقد كان التغلب على وسوسة الشيطان أكثر سهولة من التغلب على رغبة زوجة شابة جميلة بالغة الذكاء مثل السيدة عائشة - رضى الله عنها- بنت أبي بكر الصديق في الحصول على الإطراء من زوجها . ولم لا يسمعها زوجها شيئًا من الإطراء الرقيق الذي يرضي غرورها؟ إن هذا الإطراء لا ضرر فيه لأي شخص على قيد الحياة حتى روح أم المؤمنين السيدة خديجة - رضى الله عنها- ربما كانت تسامح مثل هذا الإطراء . ولا يوجد أي خداع في مثل هذه الأكذوبة في حال حدوثها . ولكن حادثة وقعت بالفعل تدل على عبقرية هذا الرجل العظيم ، والنبي الصادق الأمين ﷺ ، لكي تتجلى واضحة المعالم ، تلمحها كل العيون لكل البشر بعد أربعة عشر قرنًا من حدوثها . . . . . إنه الصدق . إنه الاعتراف بالجميل لواحدة من أمهات المؤمنين ، بل هي أُولى أمهات المؤمنين ، السيدة خديجة - رضى الله عنها .

الأمين :

٣- أ- «محمد ﷺ هو رجل الحق والأمانة والصدق . كان صادقًا فيما يفعل ، وكان صادقًا فيما يقول ، وكان صادقًا فيما يعتقد . وكان أتباعه يلاحظون دائمًا أن لكلامه قيمة ومعنى ومغزى . وكان رجلاً متحفظًا فيما يقول ، وكان يصمت عندما لا يكون هنالك ما يستحق الكلام ، ولكنه كان ألمعيًا ، موفقًا في تناول موضوع الكلام عندما يلزم الكلام ، وكان حَكيمًا فيما يقوله ، وكان مخلصًا كل الإخلاص ، وعندما كان يتحدث بالفعل كان يسلط الضوء على المسألة التي يتحدث عنها بالتحديد» .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة - ص ٦٩) .

ب- «ولقد كان من الطبيعي أن يثير محمد ﷺ حفيظة وغضب وحنق أفراد قبيلته ، قبيلة قريش ، حُرَّاسِ الكعبة وسدنة الأصنام ، وقد انضم إليه رجل من ذوي الثراء والنفوذ أو رجلان .

لقد انتشرت دعوته إلى الدين الإسلامي ببطء ، ولكن دعوته كانت تنتشر ،

وكان من الطبيعي أن يثير انتشار دعوته حفيظة وغضب وحنق كثير من أبناء قبيلته» .

(كتاب : الأبطال وعبادة البطولة- ص ٧٧) .

جـ- «لم يكن محمد ﷺ مرائيًا منافقًا . لقد كان ﷺ يصارح قومه دائمًا بالحقائق ، ولو كانت الحقائق بالغة المرارة أو الصعوبة . لم يكن يقلل من شأن الأمور غير الهينة! ولقد كانت «غزوة تبوك» من الغزوات التي حظيت بكثير من اهتمامه [1] (لأنها كانت ضد جيوش الروم في جنوب فلسطين) . لقد رفض كثير من أتباعه أن يشتركوا معه في السير إلى تلك المعركة ، وتعللوا في تقاعدهم عن السير معه بشدة حرارة الجو في ذلك الصيف ، وتعللوا بالحاجة إلى جني محصول حدائقهم ، وتعللوا بغير ذلك من المعاذير . ولم ينس لهم النبي ﷺ ذلك ، وقال لهم : حصادكم! إنه لا يستغرق يومًا . وماذا سيبقى لكم من حصاد يوم القيامة؟ وتقولون : إن الجو شديد الحرارة؟ إنه كان شديد الحرارة ، ولكن نار جهنم ستكون أشد حرارة! ويقول المنافقون : ربما تهب العواصف والأعاصير ، فيقول لهم : «لن يطول بقاؤكم» .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة-ص٩٥-٩٦) .

ولنتذكر أن توماس كارلايل كان قد قال مثل هذا الكلام ، وقال كلمات أكثر من ذلك لجمهور من المستمعين المسيحيين الذين دُهِشوا مما كان يقوله لهم عن نبي الإسلام محمد ﷺ ، وعن دين الإسلام منذ أكثر من مائة وخمسين سنة . ولم يذكر لنا التاريخ شيئًا عن المناقشات الحامية الوطيس ، والمناظرات التي كان من الطبيعي أن تكون محاضرته تلك قد تسببت فيها . ولقد أوفى توماس كارلايل بالعهد الذي عاهد نفسه عليه عندما قال : «أنا أعتزم أن أقول كل ما يمكن لي أن أقوله بحق وبصدق عن مزاياه» . واستمر كارلايل في حديثه لكي

---

(١) كانت غزوة تبوك في رجب سنة ٩هـ (أكتوبر سنة ٦٣٠م)، وسميت غزوة العسرة لشدة الحر وعموم القحط. تخلف عن السير معه ﷺ كثير من المنافقين، ولكن النبي ﷺ وصل إلى تبوك ودخلها دون قتال وكان معه ٣٠,٠٠٠مقاتل و ١٠,٠٠٠من الخيل. وأقام النبي ﷺ في تبوك عشرين ليلة يصلى بها ركعتين، وفرض الجزية على أهلها. (المترجم).

يدفع وينفي عن محمد ﷺ كل الاتهامات الزائفة ، وكل افتراء ، وكل الأكاذيب التي أذاعها الأعداء الألداء الذين ناصبوا محمدًا ﷺ دون وجه حق ألد الخصام والعداء .

تهمة الزيف :

٤- أ- يقول [1] توماس كارلايل :

«هل قام رَجُلٌ مُزَيِّف بتأسيس دين زائف غير صادر عن الله سبحانه وتعالى؟ ما هذا الزيف في الاتهام! الرجل المزيف لا يستطيع أن يبني بيتًا من الطوب والحجارة! ولو لم يكن البنَّاءُ يعرف ويتبع بكل دقة وصرامة كل ما يلزم معرفته واتباعه من شئون الخرسانة المسلحة والصلصال المحروق ، وحديد التسليح ، وكل الطرق السليمة للبناء وهندسة المعمار ، فهو لن يستطيع أن يبني بيتًا ، بل سيصنع كومة من «الزبالة» ، ولن يستمر بقاء هذه الكومة من «الزبالة» لمدة اثنى عشر قرنًا من الزمان ، ولكي يأوي إليها [2] مائة وثمانون مليون مسلم . إن مثل هذا البناء الذي قام دون مراعاة الأسس الصحيحة للبناء سيتهاوى وينهار على الفور . الغش لا يدوم إخفاؤه ، والكذب سرعان ما يظهر بهتانه!

إن ذلك يشبه إلى حد كبير الورقة المالية الزائفة . يتداولها المزيفون والمخدوعون بين أيديهم غير الحاذقة ، ولكن أناسًا آخرين لديهم الحذق الذي يمكنهم من اكتشاف زيفها . تشتعل الحرائق عندما يوجد في الطبيعة ما يحتم اشتعال الحرائق . والثورة الفرنسية وما شابهها من الثورات قد أثبتت بوضوح صحة الحقيقة القائلة بأن الأوراق الزائفة يستحيل على الدوام إخفاء تزييفها» .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة - ص ٥٨) .

---

(١) كان ذلك إبان حياة توماس كارلايل، ولقد مضى على ظهور الإسلام الآن أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان . (المترجم).

(٢) أصبح عدد المسلمين لا يقل عن ألف مليون مسلم الآن . ولا يعقل أن يعتنق ألف مليون مسلم دينًا زائفًا.

ب- «وتتصادم وتتناقض مع نظرية الاتهام بالدجل والشعوذة والاحتيال على عقول العرب المتخلفين السذج حقيقة أنه ﷺ قد عاش طوال حياته الفريدة المثال ، حياة هادئة وادعة كل الهدوء والوداعة ، حتى آخر عمره ، إذ توفاه الله وفاة طبيعية ، وانتقل بكل هدوء ووداعة وصفاء ونقاء إلى الرفيق الأعلى . ولقد كان ﷺ في الأربعين من عمره ، قبل أن يتكلم بكلمة واحدة عن رسالة السماء إليه . . . . وكان «كل طموحه» فيما يبدو ينحصر في أن يعيش حياة فاضلة ، وكانت «سمعته بين قومه» تنحصر في أنه كان يحظى بالسمعة الطيبة ، بين كل الناس الذين عاشوا بالقرب منه وعرفوه عن كثب . . . .» .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة ص٧٠) .

جـ- هل هو الطموح؟ وماذا كانت تعني شبه الجزيرة العربية كلها من أدناها إلى أقصاها بالنسبة إلى هذا الرجل؟ إنها كمٌ مُهْمَلٌ لا يكاد يُذْكر بالنسبة إلى تاج الإمبراطور الروماني هرقل ، أو بالنسبة إلى عرش كسرى الفارسي . بل ما هي قيمة كل تيجان الملوك على وجه الأرض بالنسبة إلى عظمة هذا الرجل؟ وماذا كانت كل تيجان الملوك تجديه وهو يشيد مجد عظمته؟ عظمة هذا الرجل كانت مستمدة من السماء ، وكانت هذه التيجان تتلألأ فوق جحيم الأرض . وأين ستكون هذه التيجان ، وأين يكون من يضعونها فوق رءوسهم بعد قليل من السنوات؟ وما هي قيمة أن يكون ملكًا في مدينة مكة أو أن يكون الإنسان ملكًا فوق عرش شبه الجزيرة العربية كلها يمسك بيده صولجانًا لا يزيد على أن يكون قطعة من الخشب؟ هل يتمثل في ذلك خلاص النفوس من الخطايا والآثام البشرية ، إنني أعتقد بكل حسم أن مثل ذلك الصولجان لا يحقق أي خلاص للنفوس من الخطايا والآثام البشرية . إننا سنترك وراءنا الصولجان وكل ما يمثله الصولجان من مظاهر السلطة الدنيوية وزخارفها ، وقد تجردنا بعد الوفاة منها كلها دفعة واحدة .

إن اتهام محمد ﷺ باعتبار أنه كان رجلاً يحاول تحقيق طموح شخصي دنيوي على أساس من رغبة جامحة في الحصول على سلطات الملك

الدنيوي ، إنما هو اتهام عارٍ تمامًا من الصحة ، لدرجة أنه لا يحتاج إلى مجرد البحث والمناقشة بشأنه من جانبنا .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة - ص٧٢-٧٣) .

تهمة اقتراف الخطايا والآثام :

٥- خطايا وآثام؟ هل اقترف محمد ﷺ من الخطايا والآثام ما يحط من شأنه ، ويجعله غير جدير بعظمة وعصمة الأنبياء والمرسلين؟ إن من الضروري أن أقول : إن أعظم الخطايا والآثام إنما يتمثل في عدم الدراية ، وعدم القدرة على تحديد معنى الخطيئة ، أو معنى الإثم ، والعمل الأثيم . وأنا أعتقد أن أولئك الذين أتيحت لهم فرصة قراءة العهد القديم ، والعهد الجديد من الإنجيل ، كان الأحرى بهم أن يعرفوا من قراءة كتابهم المقدس : مَنْ مِنَ الأنبياء قد ارتكب الخطايا والآثام في حق الرب؟ إن داود النبي الملك العبراني - وفْقًا لما يرويه عنه الكتاب المقدس- [١] كان قد اقترف ما يكفي من الخطايا والآثام ليكون أكبر الخطاة الآثمين ! ولم يرتكب محمد ﷺ أي خطيئة أو أي عمل أثيم ، ويحاول منتقدوه «بغير حق» أن يسخروا منه قائلين : هل هذا هو نبي الإسلام؟ لقد كان يتبع شهواته الجنسية إشباعًا لفحولته ولتمكن الشهوة منه! وهذه سخرية لا مسوغ لها أبدًا من وجهة نظري . إنها تهمة ضحلة لا أساس لها من الصحة . ما الخطايا وما هي تفاصيل الحياة في المسلك الظاهر للإنسان عندما نفحص محتواها في حقيقة أمرها ، وعندما يكون الندم والرجوع عن الخطأ قد أزالا أي آثار للخطأ ، بفضل التوبة الصادقة ، فينطوي الخطأ في ثنايا الصفح والعفو والنسيان؟ إن الخطيئة لا تلتصق بالإنسان الذي يمشي بخطواته فوق الأرض ، إذا كان قد عقد العزم أن يمشي في طريقه المستقيم . أليس الصفح والغفران من شأن الله؟! إن أكبر الخطايا فيما أعتقد

---

(١) يلاحظ المؤلف في ملاحظة بالهامش السفلي ص ٢٧ أن هذا هو التصور اليهودي والمسيحي لأنبياء الله، إذ يتهمونهم بالزنا وبالقتل والتآمر من أجل القتل وفقًا لما يرويه عنهم الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى. أما القرآن الكريم فهو يؤكد عصمة الأنبياء جميعًا عليهم السلام ويربأ بهم أن يكون أي نبي أو رسول منهم قد ارتكب أي خطيئة. وشتان بين موقف وموقف . (المترجم).

هو الغرور الناجم عن الاعتقاد الخاطئ بأن الإنسان لا يخطئ كما لو كان معصومًا تمامًا من الخطأ . إن هذا الاعتقاد بالعصمة من الخطأ لا يتحقق إلا بالوفاة ، والقلب الذي يخلو من الإخلاص والتواضع والاعتراف بالحقائق إنما هو قلب ميت . إن القلب عندما يكون ميتًا يكون نقيًا نقاء حبات الرمال الجافة الميتة .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة - ص٦١) .

تهمة السيف:

تلك هي أكبر الجرائم! إن أعظم خطايا محمد ﷺ في عيون الغرب المسيحي هي أنه لم يرتض أن يُذْبح أو أن «يُصْلَبَ» على يد أعدائه . لقد دافع بكل شجاعة ، وبكل مهارة ، وبكل اقتدار ، دافع عن نفسه ، وعن أسرته ، وعن أتباعه ، وتغلب في النهاية على كل أعدائه ، وقهر عدوانهم .

إن نجاح محمد ﷺ في ذلك هو الغصة في حلق خصومه في الغرب الذين حاولوا دون جدوى ، أن يجعلوا مزاياه الحقيقية عيوبًا مشينة . إنه في نظرهم لم يكن يؤمن بقداسة التضحية بنفسه ، من أجل أن يُغْتَفَرَ للبشر خطاياهم ، ومن أجل أن يتحقق للخطاة من البشر أسهل خلاص مما يستحقونه من عقاب جزاءً وفاقًا لخطاياهم وذنوبهم . لقد كان ﷺ يفكر ويتصرف على نحو طبيعي معقول ومقبول .

ويقول «جيبون» في كتابه عن اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية : «من الطبيعي ، ونزولاً على مقتضيات قانون الطبيعة التي لا جدال فيها ، أن لكل شخص الحق في أن يدافع عن نفسه ، وأن يدافع عن ممتلكاته ، وأن تصل مقتضيات دفاعه عن نفسه ، إلى كل الآفاق المعقولة ، التي توفر له الأمن والقدرة على رد [1] الأعداء عن موطنه» .

---

(١) ذلك هو ما يمكن أن نطلق عليه تسمية. «الوحدة الاستراتيجية لأرض الوطن» بمعنى امتداد أرض الوطن حتى تصل إلى حدود طبيعية يمكن الدفاع عنها بسهولة. ولم يكن من المعقول مثلاً أن يكتفي المسلمون بالبقاء في شبه الجزيرة العربية دون أن يسيطروا على كل منطقة الشرق الأوسط . (المترجم).

إن نضال محمد ﷺ وانتصاره على جيوش أعدائه قد جعلت محرري دائرة المعارف البريطانية يعلنون أن محمدًا ﷺ هو :

«أعظم الشخصيات الدينية نجاحًا في التاريخ» .

كيف يحقُّ إذَنْ لخصوم الإسلام أن يعتبروا أن انتصارات محمد ﷺ لم يكن لها أي هدف ، أو أي قيمة سوى أنها قد أتاحت له أن ينشر دينه الإسلامي اعتمادًا على السيف ، وغلبة الجيوش والرماح ، وغير ذلك من أنواع السلاح؟ . . هل فرض محمد ﷺ الإسلام على رقاب الناس بأن قطع رقابهم؟ .

٦- أ- يقول دولاسي أوليري ما نصه : «إن التاريخ يؤكد ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أن خرافة الاجتياح البربري لمساحات شاسعة من الأراضي ، وإجبار الناس على الدخول في الإسلام بقوة السلاح ، فوق رقاب الشعوب المغلوبة على أمرها ، إنما هي خرافة خيالية مضحكة ، عارية تمامًا من الصحة ، وبعيدة كل البعد عن الحقيقة على نحو نادر المثال في دنيا التاريخ وفي عالم المؤرخين» .

(دولاسي أوليري- كتاب الإسلام في مفترق الطرق - لندن ١٩٢٣ص٨) .

وأنت - أيها القارئ الكريم - لست بحاجة إلى أن تكون مؤرخًا مثل **«أوليري»** لكي تعرف أن المسلمين كانوا قد حكموا إسبانيا لمدة ٧٣٦عامًا . ولقد كانت أطول مدة حكم فيها المسيحيون المسلمين هي ٥٠٠سنة في موزمبيق ، وهي بلد تم للمسيحيين انتزاعه عن حاكم عربي مسلم هو «موسى بن بايق» وهو اسم عربي لم يستطيعوا أن ينطقوه النطق الصحيح . ولا يزال المسلمون يمثلون ٦٠٪ من سكان موزمبيق على الرغم من مرور خمسة قرون من حكم المسيحيين لذلك البلد .

وعلى كل حال ، بعد قرابة ثمانية قرون تم إقصاء وإبعاد المسلمين عن إسبانيا بحيث لم يبق فيها مسلم واحد يقيم الأذان معلنا وجوب صلاة من الصلوات الخمس المفروضة على المسلمين في اليوم الواحد ، ولو كان المسلمون قد استخدموا القوة عسكريًا واقتصاديًا في إسبانيا ، لما بقى فوق أرض إسبانيا أي

مسيحي ليقوم بطرد المسلمين منها . ربما يجوز أن يصف الإنسان - لو شاء - المسلمين بأنهم قد استفادوا من خبرات وثروات البلاد ، التي كانوا قد فتحوها ، ولكن يستحيل أن يتهمهم أحد بأنهم قد استخدموا السيف ، لكي يحوّلوا الإسبانيين إلى مسلمين ، يعتنقون الدين الإسلامي ، خوفًا من سيوف المسلمين .

واليوم لا يزال الإسلام ينتشر في كل أنحاء العالم دون أن يكون لدى المسلمين سيوف!!

ولقد كان المسلمون أيضًا هم سادة الهند لمدة ألف عام ، ولكن حدث عندما نالت شبه القارة الهندية استقلالها في عام ١٩٤٧ ، أن حصل الهندوس على ثلاثة أرباع مساحة الهند ، وحصل المسلمون على ربع المساحة فقط .

لماذا حدث ذلك؟ لقد حدث ذلك لأن المسلمين خلال ألف عام من سيطرتهم على أراضي الهند لم يجبروا الهندوس على اعتناق الدين الإسلامي اعتمادًا على حد السيف . ولم يفعل المسلمون هذه الفعلة على الإطلاق في إسبانيا ولا في الهند ، ولم يكن السبب في ذلك هو مجرد التحلي بفضائل الأخلاق فحسب ، ولكن كان ذلك نزولاً على مقتضيات أمر إلهي موجود في القرآن الكريم إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

● **ولقد أدرك المسلمون المنتصرون ، وأيقنوا بموجب هذا الأمر الإلهي أن [1] «الإكراه» لم يكن يتسق مع الدين الصحيح للأسباب الآتية :**

أ- يعتمد الدين الصحيح على الإيمان والإرادة ، وسيفقد الإيمان وستفقد الإرادة كل معنى ، لو تم فرض الدين على الناس بالقوة الغاشمة . القوة الغاشمة يجوز لها أن تهزم وتقهر ، ولكنه يستحيل عليها أن تكون كافية ليتحول إنسان بحق من دين إلى دين .

---

(١) لا ريب على الإطلاق أن الله عز وجل لو شاء أن يكون كل البشر مؤمنين به لكان ذلك. ولكن حقائق الإيمان تضيع كلها لو لم يكن وجود الكفر ممكنًا بين البشر. ولقد قضت مشيئة الله أن يعبده الناس طواعية واختيارًا وليس قهرًا وإجبارًا . (المترجم).

ب- الحقُّ والباطلُ ، والرُّشْد والغَيُّ ، والهُدَى والضلالُ قد تم توضيح كل منها بفضل الله ورحمته ، لدرجة أنه لم يبق أي ريب ، أو أي شك في عقل أي إنسان يخلص النية في التوجه الصحيح نحو حقائق أسس الإيمان .

جـ- رعاية الله وعنايته مستمرة ، متصلة بالبشر ، وقد اقتضت مشيئته أن يرشدنا في غياهب الظلام ويأخذ بأيدينا إلى الهدى والإيمان ، دون حاجة إلى قهر أو إجبار .

وفيما عدا بعض الممارسات القليلة الخاطئة هنا أو هناك ، نجد أن المسلمين عمومًا قد امتثلوا للأمر الإلهي في كل الأراضي التي خضعت لفتوحات المسلمين .

● **ولكن ، ماذا يمكن أن يقول الخصوم على أقطار لم يضع فيها جندي مسلم مسلح قدميه على الإطلاق ؟**

أ- **إندونيسيا** : الحقيقة هي أن أكثر من مائة مليون إندونيسي إنما هم من المسلمين ، وبالرغم من ذلك لم تطأ أقدام أي جيش للمسلمين الأرض في أكثر من ألفي جزيرة في إندونيسيا .

ب- **ماليزيا** : الغالبية العظمى من سكان ماليزيا من المسلمين ، ومع ذلك لم تطأ قدم جندي مسلم واحد أراضي ماليزيا .

جـ- **إفريقيا** : أغلبية الناس الذين يعيشون فوق أراضي السواحل الشرقية في إفريقيا حتى موزمبيق إنما هم من المسلمين ، وفوق أراضي السواحل الغربية في إفريقيا أيضًا نجد أن أغلبية السكان من المسلمين ، ولكن التاريخ لم يسجل أي غزوات للمسلمين في هذه الأقطار الإفريقية ، جاءت إليها من أي مكان . ما السيف؟ أين كان السيف؟! لقد قام التاجر المسلم بإنجاز كل المهمة . إن سلوكه الطيب والتزامه الأخلاق الحميدة في المعاملة مع الناس قد حقق معجزة انتشار الإسلام بين الناس في تلك الأقطار .

ورغم كل هذا قال لي ضيفي المسيحي وهو يحاورني : «كل ما تقوله يبدو أنه من المستحيل نقضه ومعارضته يا سيد ديدات ، ولكننا نتحدث عن الإسلام في

بداية الدعوة ، ونتحدث عن الطريقة التي استطاع بها نبيكم محمد ﷺ أن يجعل الوثنيين يتحولون إلى الإيمان برسالته ، واعتناق دينه ، كيف فعلها إن لم يكن قد فعلها اعتمادًا على السيف؟ .

واحد ضد الجميع ؟

وإزاء هذا التساؤل ، لا نستطيع أن نفعل ما هو أفضل من أن ندع توماس كارلايل نفسه يدافع عن بطله النبي المختار ، لدحض هذا الاتهام الزائف ، بأن الإسلام في أول عهده قد انتشر بين العرب اعتمادًا على السيف . وفي هذا الصدد يقول توماس كارلايل :

٧- «إنه السيف فعلاً : ولكن أين؟ وفي أي جانب يوجد السيف؟! إن كل رأي جديد ، في بدايته يكون بطبيعة الحال منحصرًا في أقلية ، إنما هي أقل الأقليات في عدد أفرادها ، إذ إن الرأي الجديد لا يقول به في البداية إلا شخص واحد ، يكون الرأي الجديد موجودًا في رأسه هو وحده ، دون غيره من الناس . وهنالك ، في رأس هذا الشخص الوحيد يولد الرأي الجديد ، ويصدق بصحته . يوجد رجل واحد في مواجهة كل الرجال . وعندما يمسك هذا الرجل الواحد بالسيف ويحاول أن ينشر رأيه بقوة السيف بين الناس فهو لن يحصل من جراء امتشاق السيف على أي نفع يحقق هدفه . وأنت يجب أولاً أن تشرع السيف! . ونحن لا نجد أن الدين المسيحي قد نبذ السيف على مدار تاريخه عندما استطاع أتباع الدين المسيحي الحصول على السيف . ولم يتمكن شارلمان من تحويل الساكسونيين إلى اعتناق المسيحية بمجرد التبشير النظري القائم على أساس من الإقناع وحده» .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة- ص ٨٠) .

في سنِّ الأربعين عندما أعلن محمد ﷺ عن رسالة السماء إلى الأرض ، لم يكن هنالك حزب سياسي ، ولم يكن ذلك في نطاق دولة ملكية النظام ، ولم تكن هنالك أسرة حاكمة ، أو قبيلة مسيطرة تسانده في دعوته إلى الدين الذي أعلن عنه . وكان قومه الذين ظهر بينهم وهم العرب متورطين في عبادة

الأصنام ، ويسيطر على عقولهم الكهان والمشعوذون . ولم يكونوا شعبًا سهل الانقياد بأي حال من الأحوال ، إذ كانت السيطرة عليهم مستحيلة المنال . ولم تكن لحومهم طرية . وكانوا شعبًا متقلب الأهواء ، مشتت المذاهب والآراء ، لا تنقطع الحروب والغارات الانتقامية المضادة بين قبائله المتنافرة متقلبين تقلبًا وحشيًا بين مختلف أنماط الولاء والتبعية كما وصفهم كارلايل . ورجل واحد ، يضرب بيده يستطيع أن يُوَحِّدَ مثل هذا الشعب القبائلي المتنافر في نسيج واحد وأمة واحدة؟! إن ذلك يحتاج إلى معجزة .

ولقد حدثت بالفعل المعجزة . لقد كان الله وحده هو القادر على أن يجعل محمدًا ﷺ منتصرًا نصرًا مبينًا على طول الخط ، رغم قلة الأعوان والأنصار وكثرة الأعداء ، وضخامة الأخطار ، مصداقًا لقول الله - سبحانه وتعالى - لسيدنا محمد ﷺ في القرآن الكريم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح :٤) .





أسرع الأديان نمواً اليوم

سيف العقل :

إن خصوم الإسلام ، والمشككين فيه ، والمبشرين بالدين المسيحي ، وأتباعهم في مختلف معسكراتهم في كل أنحاء العالم ، لن يكفوا أبدًا عن الادعاء بأن الإسلام قد انتشر بالسيف! ولكنهم لن يخاطروا أبدًا بأن يجيبوا عن سؤالنا . . . . من الذي رشا كارلايل ؟ في عام ١٨٤٠ عندما دافع كارلايل عن محمد ﷺ ودحض ذلك الادعاء الزائف بشأن السيف لم يكن هنالك أحد من المسلمين بالقربِ منه لكي يرشُوَهُ . كان العالم الإسلامي كله آنذاك تحت احتلال الغرب المسيحي في حالة يرثى لها ، وكانت الأقطار الإسلامية كلها تحت حكم وسيطرة المسيحيين ، فيما عدا القليل منها ، مثل إيران وأفغانستان وتركيا التي كانت مستقلة استقلالاً اسميًا فقط ، رغم قوة تأثير نفوذ المسيحيين في هذه الأقطار أيضًا . ولم تكن لدى أي قطر من الأقطار الإسلامية آنذاك ثروات لتغوي ، ولا بترو - دولارات لترشو !

كان ذلك في الماضي منذ وقت طويل ، ولكن ماذا بشأن اليوم في عصرنا الحديث؟ يتضح من الرسم البياني التالي أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا ونموًا في العالم . مجمل الزيادة في نطاق كل المذاهب والملل والنحل المسيحية تتراوح حول نسبة مئوية مقدارها ١٣٨٪ في مقابل زيادة مدهشة في السنة المئوية لانتشار الإسلام في العالم بلغت ٢٣٥٪ في نفس المدة الزمنية التي تم قياس الزيادة في الانتشار خلالها ، وهي نصف قرن من الزمان .

A CRUCIAL HALF CENTURY OF RELIGION

by Keith W. Stump

We highlight the most significant developments

WORLD'S MAJOR RELIGIONS 1934/1984

NUMBER OF ADHERENTS IN 1934* — NUMBER OF ADHERENTS IN 1984†

Religion	1934	1984	Change
BUDDHISM	150,180,000	245,000,000	63% INCREASE
CHRISTIANITY	682,400,000	1,000,000,000	47% INCREASE
ROMAN CATHOLIC	331,500,000	563,000,000	70% INCREASE
PROTESTANT	208,800,000	324,000,000	57% INCREASE
EASTERN ORTHODOX	144,000,000	62,000,000	38% DECREASE
CONFUCIANISM & TAOISM	350,600,000	305,000,000	13% DECREASE
HINDUISM	230,150,000	500,000,000	117% INCREASE
ISLAM	209,020,000	700,000,000	235% INCREASE
JUDAISM	15,630,000	15,000,000	4% DECREASE
SHINTOISM	25,000,000	63,000,000	152% INCREASE

*Source: The World Almanac and Book of Facts, 1935
†Source: The Reader's Digest Almanac and Yearbook, 1983

يقدم لنا المؤلف الرسم البياني الذي نشرته مجلة «بلين ثروت» تحت عنوان: «نصف قرن حاسم في شئون الدين» - أديان العالم الكبرى في المدة من ١٩٣٤ إلى ١٩٨٤ .

والرسم البياني يوضح مدى الزيادة في معدل انتشار الإسلام في العالم التي بلغت نسبتها المئوية ٢٣٥٪ (انظر مكان السهم) بينما بلغت نسبة الزيادة في انتشار المسيحية ١٣٨٪ .

ومن الأمور التي ازداد التأكيد عليها ، أن الإسلام هو الدين الأكثر انتشارًا في الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي بريطانيا . ويقال : إن عدد المسلمين في بريطانيا أكثر من عدد المسيحيين الميذوديست فيها . ولك الحق في أن تسأل عن السيف ، والإجابة هي كما قالها توماس كارلايل : يوجد السيف فعلاً ، ولكنه سيف الحق والعدل والعقل . إنه سيف يتمثل في نبوءة ، وحقيقة قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾ (الفتح : ٢٨) .

لقد تحدد مصير الإسلام باعتبار أنه دين الله الصحيح بأوضح الكلمات ، كلمات الله سبحانه وتعالى . مصير الإسلام هو أن يسود كل الأديان في العالم متفوقًا على كل دين آخر كما يدل على ذلك بكل وضوح قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ** ﴾ (الفتح : ٢٨) .

وكلمة «دين» في اللغة العربية تعني في أصلها اللغوي «طريقة الحياة» وتعبير : «ليُظهرَه على الدين كله» تعنى أن دين الإسلام سيسود وسيعلو كل الأديان سواء في ذلك الهندوسية ، أو البوذية ، أو المسيحية ، أو اليهودية ، أو الشيوعية (باعتبار أنها تدعى أنها نظام في الحياة ، وقد أعلنت الشيوعية إفلاسها التام ، وقصورها عن أن تكون نظامًا سليمًا لحياة الناس) .

ويتكرر نفس المعنى في آية قرآنية أخرى في سورة الصف ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ (الصف :٩) .

انتصار الإسلام :

سيسود الإسلام ويزداد انتشاره في العالم . هذا هو وَعْدُ الله سبحانه وتعالى ، ولن يخلف الله وَعْدَه . ولكن ، كيف سيسود الإسلام ، ويزداد انتشارًا في العالم؟ .

هل سيتحقق ذلك بالسيف؟ لا ، لن ينتشر الإسلام في العالم بالسيف حتى لو كنا نملك مدافع الليزر . هل نحن نستطيع أن نستخدم مثل هذه المدافع

لنشر الإسلام في العالم؟ إن القرآن الكريم يمنعنا ، ويحرم علينا أن نستخدم القوة كوسيلة لفرض الإسلام ، وإجبار الناس على التحوُّل إليه ، والدخول فيه ، وبالرغم من ذلك نجد أن الآية القرآنية الكريمة ، تتنبأ بأن الإسلام سيكون هو الدين الغالب بين الأديان الأخرى . إن الانتصارات التي تحرزها عقائد الإسلام قد بدأت مؤشرات ظهورها بالفعل ، وهي تحقق الغلبة والفوز والهيمنة بالمقارنة مع كل الأيديولوجيات ، والعقائد الدينية الأخرى في كل أنحاء العالم ، وإن لم يكن ذلك في إطار الدين الإسلامي ، فهي تدخل في إطار الإصلاح ، وحل مشكلات العالم . وعقائد الإسلام ومبادئه يتم الأخذ بها والتسليم بصوابها في مختلف النظم الدينية . وكثير من الحقائق التي كانت إسلامية الطابع ولم تكن معروفة من قبل ، أو كانت تواجه بمعارضة قوية من قبل بكل شدة وبكل صراحة لدى أتباع الأديان الأخرى ، قد أصبحت الآن جزءاً من منظومة الحقائق العلمية المعترف بها علميًا من العلماء الذين يعتنقون مختلف الأديان .

- الأخُوَّة بين كل البشر .
- إلغاء نظام القديسين والمنبوذين .
- حق المرأة في الميراث .
- احترام المعابد ، ودور العبادة بالنسبة إلى كل الأديان .
- تحريم شرب الخمر .
- الفهم الصحيح لوحدانية الله سبحانه وتعالى دون شبهات الإشراك به .

وقبل أن نطوي الكلام عن هذه الاعتبارات المهمة نَوَدُّ أن نضيف كلمة وجيزة عن الاعتبار الأخير المتعلق بوجوب وحدانية الله دون إشراك . سل أي مؤمن بالله ، أو أي مشرك بالله ، أو أي مؤمن بوحدة الوجود ، أو أي مؤمن بالتثليث ، سَلْهُ : كم عدد الآلهة التي يؤمن بها؟ سيرتجف بشدة لو قال أي عدد للآلهة غير الإله الواحد! وهذا هو تأثير التوحيد النقي الحقيقي في الإسلام .

وفي ذلك يقول المؤرخ جيبون في كتابه : «اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» ما نصه بالحرف الواحد : «**عقيدة محمد ﷺ عقيدة لا غموض فيها ، والقرآن الكريم شهادة ناصعة الصدق بوحدانية الله**» .

رأي غير المسلمين من بلاد الشرق :

معظم المدافعين عن محمد ﷺ ضد الرأي القائل بأنه قد نشر دينه بحد السيف كانوا من الغربيين . ولنستمع الآن لما يقوله بعض غير المسلمين من مفكري الشرق في هذا الصدد .

٨- أ- «كلما درست أكثر اكتشفت أن قوة الإسلام لا تكمن في السيف» .

(المهاتما غاندي - مؤسس الهند الحديثة في كتابه : «شباب الهند») .

ب- إنهم ، منتقدو محمد ﷺ ، يرون النار بدلاً من أن يشاهدوا النور ، ويستسيغون القبح بدلاً من الاستمتاع بالجمال . إنهم يخرفون ويعتبرون كل فضيلة وميزة وكأنها رذيلة مستهجنة . إن ذلك إن دل على شيء فهو يدل على أنهم محرومون من نعمة التمييز وحسن الإدراك . . . . إن منتقدي محمد ﷺ إنما هم جماعة من العُميان . إنهم لا يدركون أن السيف الوحيد الذي شهره وشرعه محمد ﷺ إنما كان هو «**سيف الرحمة**» والتعاطف والصداقة والتسامح - إنه السيف الذي يهزم الأعداء ، وينظف قلبهم من الغضب والحقد والحسد والكراهية . لقد كان سيفه أمضى من السيف المصنوع من الحديد الصلب» .

(بانديت جيانادرا ديف تشارما شاستري أثناء لقاء تم عقده في جورا كفور بالهند سنة ١٩٢٨) .

جـ- «لقد فَضَّل محمد ﷺ الهجرة على قتال أبناء بلده . ولكن عندما تجاوز العدوان كل حدود إمكانات التسامح امتشق سيفه دفاعًا عن نفسه . وأولئك الذين يعتقدون أن أي دين يمكن أن يتم نشره بالسيف ، إنهم جماعة من الحمقى الذين لا يعرفون الطرق السليمة لنشر الدين ، ولا يعرفون فيم تستخدم السيوف ، ولا يعرفون شيئًا من شئون الدنيا بوجه عام . إنهم مزهوون

بهذا الاعتقاد الخاطئ ؛ لأنهم بعيدون عن الحق بمسافات كبيرة شاسعة» .

(صحفي من طائفة السيخ في صحيفة ناوان هندوستان الصادرة في مدينة دلهي بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٩٤٧) .

ولقد كان روديار كيبلينج هو الذي قال : «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» ولقد كان كيبلينج على خطأ في ذلك! في مجال الدفاع عن محمد ﷺ ضد الاتهام بأنه قد نشر الإسلام بحد السيف التقى بالفعل الشرق والغرب .

ثلاثة مقاييس أخرى :

بعد أربعة عشر عامًا من إلقاء توماس كارلايل لمحاضرته دفاعًا عن بطله ، النبي محمد ﷺ ، كتب شاعر فرنسي هو «لامارتين» كتابًا بعنوان : «تاريخ الأتراك» . وحيث إن الأتراك مسلمون ، فلقد تعرض لامارتين بالدراسة لبعض جوانب الإسلام ، كما تناول بالدراسة بعض الجوانب من شخصية مؤسس الإسلام ، محمد ﷺ ، ومثلما وضع جولز ماسرمان في أيامنا هذه ثلاثة مقاييس موضوعية لقياس عظمة القيادة ، فلقد ابتكر لامارتين منذ أكثر من قرن من الزمان ثلاثة معايير موضوعية أخرى ، لقياس عظمة القيادة والقادة . ومن الضروري أن نشهد لمفكري الغرب بالبراعة في وضع مثل هذه المقاييس ، أو المعايير الموضوعية لإصدار الأحكام السليمة ، وفي هذا الصدد يقول لامارتين :

٩- لو كانت عظمة الهدف أو الغاية ، وكانت بساطة وضآلة تكاليف الوسيلة ، بالإضافة إلى تحقيق النتائج الباهرة بنجاح وسلاسة هي المعايير الثلاثة للعبقرية البشرية ، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أي رجل عظيم من عظماء التاريخ الحديث بنبي الإسلام محمد ﷺ ؟!

وينهي لامارتين مقالته الطويلة الرائعة في هذا الصدد بقوله : «**فيلسوف ، خطيب ، رسول من رسل الله ، مُشَرِّعٌ ، محارب ، منتصر الفكر ، مساند للعقائد المعقولة ، هادم للأصنام بمختلف صورها ، مؤسس عشرين إمبراطورية دنيوية أرضية ، وإمبراطورية روحية واحدة ، ذلكم هو محمد ﷺ وبكل المقاييس والمعايير التي يمكن أن تقاس بها عظمة البشر**

يجوز لنا أن نسأل سؤالاً له كل الوجاهة ، وكل الدواعي : هل يوجد أي رجل أعظم من محمد ﷺ ؟

(لامارتين في كتابه : «تاريخ الأتراك - باريس ١٨٥٤) .

وإجابة سؤال لامارتين :

«هل يوجد أي رجل أعظم من محمد ﷺ؟ متضمنة في ثنايا السؤال نفسه . إنه بطريقة أخرى يقول : «لا يوجد رجل أعظم من محمد ﷺ » .

أو هو بطريقة أخرى يقول :

«محمد ﷺ هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض» .

ونجد هذا القول مصداقًا لقول الله سبحانه وتعالى لخاتم الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح :٤) . وبكل تأكيد لقد رفع الله سبحانه وتعالى له ذكره .

وقبل أن ننفي عن لامارتين أي انحياز في الرأي ، أو اتهام بالرشوة سنقوم بفحص مقاييسه الثلاثة ، وسنرى ما إذا كانت صحيحة بالنسبة لعظمة نبي الإسلام محمد ﷺ .

١- عظمة الهدف أو الغاية :

تاريخ العالم ، لو درست تاريخ العالم حتى الآن ، سترى أن الوقت الذي أمر فيه الله سبحانه وتعالى خاتم أنبيائه ورسله ، محمدًا ﷺ ، أن يعلن للناس رسالته كان من أشد الأوقات ظلامًا !

لقد كانت الحاجة ماسة إلى أحد أمرين : إما إرسال نبي ، إلى كل ركن وكل أمة من أركان وأمم العالم ، أو إرسال نبي خاتم للأنبياء والرسل إلى كل البشر في كل أمم ، وأركان العالم لكي يخلصَ ويحررَ البشرَ من الزِّيف ، والخرافة ، والأنانية ، وتعدد الآلهة ، والضلال ، وظلم وقهر الإنسان لأخيه الإنسان . وتكون رسالة خاتم أنبياء ورسل الله موجهة من الله إلى الإنسانية كلها . واقتضت مشيئة الله وحكمته أن تختار لهذه الرسالة الخاتمة النبي خاتم الأنبياء

والمرسلين ﷺ من أعماق أكثر مناطق الأرض بُعدًا عن مراكز الحضارة قبل بعثه إلى البشر كافة ، من شبه الجزيرة العربية . وهذه الحقيقة ، أن رسالة نبي الإسلام ﷺ كانت رسالته لكل البشر ، قد سجلها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء :١٠٧) .

«لا مجال هنا الآن لتمييز جنس على جنس آخر ، أو تفضيل أمة على أمة أخرى . لا مجال هنا الآن «للشعب المختار» أو «بذرة إبراهيم» أو «نسل داود» أو «هندو آريا فارتا» أو «اليهود» أو «الجوييم» أو «العرب أو العجم (الفُرْس) ، الأتراك أو الطاجيك ، الأوربيين أو الآسيويين ، البيض أو الملونين ، الآريين أو الساميين ، المغول أو الأفارقة ، الأمريكي أو الأسترالي أو البولندي . إنه لكل الناس ولكل المخلوقات التي حباها الله القدرة على تحمل المسئولية الروحية ، إنه يقدم المبادئ السليمة لكل العالم» . . هذا هو ما يقوله عبد الله يوسف على ، في ترجمته لمعاني القرآن الكريم وتعليقاته .

المسيح عليه السلام ومسألة التمييز العنصري :

إن النبي السابق مباشرة لنبي الإسلام محمد ﷺ كان قد نصح حوارييه قائلاً لهم : «لا تعطوا القدس للكلاب (والمقصود بالكلاب هم الناس غير اليهود) ولا تطرحوا درركم قُدَّام الخنازير (والمقصود بالخنازير هنا هم الناس غير اليهود» لئلا تدوسها بأرجلها ، وتلتفت فتمزقكم» . (إنجيل متى ٧ :٦) . ولا يهتم كتاب الإنجيل بتسجيل أن المسيح عليه السلام كان يعيش وفقًا للمبادئ التي كان يعلنها . وطوال حياته ، لم يتجه المسيح بدعوته إلى شخص واحد من غير اليهود . ولقد صَدَّ المسيح عليه السلام حقًا امرأة غير يهودية رافضًا أن يمنحها أي شيء من البركة التي كانت تلتمسها عنده من أجل شفاء ابنتها من المرض (وكانت تلك المرأة يونانية) كما وَرَدَ ذِكْرُه في إنجيل مرقس (٧ :٢٦) . وبعدئذ وأثناء الاحتفال بعيد الفِصح في أورشليم عندما كان المسيح عليه السلام مجتمعًا مع تلاميذه للاحتفال بهذه المناسبة ، سعى بعض اليونانيين للاستماع إليه طلبًا لمعرفة توجيهاته الروحية ، ولكن المسيح عليه السلام عزف عن الترحيب بوجودهم كما يحكي عن ذلك إنجيل يوحنا بقوله : «وكان أناس يونانيون من الذين صعدوا

ليمجدوا في العيد . فتقدم هؤلاء إلى فيلبس الذي من بيت صيدا الجليل وسألوه قائلين : يا سيد ، نريد أن نرى يسوع . فأتى فيلبس وقال لأندراوس ثم فيلبس وأندراوس ليسوع» .

(يوحنا ١٢ : ٢٠-٢٢) .

تمجيد الذات :

ولا تدل الرواية بعد ذلك على أي ترحيب ، أو رفض ، كما لو كان المسيح عليه السلام لم يعبأ برغبة أولئك الذين كانوا قد حضروا من أجل الاستماع إلى مواعظه ، كما سجل ذلك (إنجيل متى ٥ :٣٧) ، بينما يمضي إنجيل يوحنا ليؤكد إحساس المسيح بالفخر والإعجاب بنفسه ويؤكد ذلك قول إنجيل يوحنا في هذا الموضع : «وأما يسوع فأجابهما قائلاً : قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان» . (يوحنا ١٢ :٢٣) .

أرقى مقاييس السمو الأخلاقي :

لم يضع محمد ﷺ مثل هذه الخطوط الفاصلة التي تباعد بينه وبين الناس من مختلف الأجناس ، والألوان ، والأديان ، والطبقات الاجتماعية . ولنتذكر مَعًا كيف أن الله العلي العليم قد وجه النبي الكريم ﷺ إلى أرقى آداب السلوك في التعامل والتواصل مع الآخرين . إن جولان فكرة الاستياء من مقاطعة الرجل الأعمى لحديثه مع عِلية القوم في خاطره قد عاتبه الله بشأنها ، ولم يدعها تمر دون تمحيص لها (انظر ص ٣٩ في سبب نزول سورة عبس) . إن الله سبحانه وتعالى قد وضع لسيدنا محمد ﷺ أرقى المعايير الأخلاقية وأكثرها رفعة وسُمُوًا باعتبار أنه ﷺ قد بعثه الله للناس كافة ، وكانت أخلاق النبي ﷺ تتسق مع هذه المعايير الإلهية للرقي الأخلاقي ، وهى الحقيقة التى أعلنها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في قوله الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (القلم :٤) .

ومن هم الذين يتجه إليهم بدعوته؟ وما هو مجال دعوته؟ إنهم كل البشر في كل أنحاء العالم!

ويؤكد الله - سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم أن رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ إنما هي موجهة إلى كل البشر في كل أرجاء العالم في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء :١٠٧) .

رسول من الله إلى كل الناس :

وليس هذا الاعتبار مجرد ملاحظة سطحية عابرة ، وليس هذا الاعتبار ، اعتبار أن محمدًا ﷺ إنما هو رسول الله إلى الناس كافة ، مجرد اعتبار جميل الشكل مُرْضٍ للنفوس يزجي إلى نفوسنا شعورًا بالفخر والخُيَلاء دون أن يكون متسقًا مع الواقع الفعلي في ممارسة رسول الله ﷺ إلى البشر جميعًا أثناء دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له إِبّان حياته ﷺ . إننا بالفعل نجد أن بين صحابته ﷺ بالإضافة إلى صحابته من العرب ، نجد سيدنا بلالاً الحبشي ، ومن صاحبته أيضًا سلمان الفارسي ، ومن صحابته أيضًا عبد الله بن سلام اليهودي . ويجوز أن يقول المتشككون : إن هذه مجرد مصادفة ، ولو قالوا ذلك فماذا عساه أن يكون قولهم بشأن الحقيقة التاريخية القائلة : إنه ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى كان قد بعث بخمس رسائل يحملها خمسة من أتباعه إلى خمسة ملوك وحكام في كل الأقطار المأهولة بالسكان في عالمه المعاصر داعيًا إياهم ، وداعيًا شعوبهم للانضمام إلى الإسلام والدخول في دين الله الصحيح ، وهم :

١) ملك الفرس : كسرى .

٢) حاكم مصر تحت الحكم الروماني : المقوقس .

٣) النجاشي : حاكم الحبشة .

٤) الإمبراطور الروماني : هرقل بالقسطنطينية .

٥) ملك اليمن .

وهكذا كان محمد ﷺ قد أكَّدَ من خلال الممارسة الفعلية لمهام وواجبات دعوته الدينية صفة العالمية في دعوته ، ولم تكن دعوته قاصرة على قومه من

العرب وحدهم ، مما يحقق أيضًا - ودون أي ريب- صفة «عظمة الهدف أو الغاية» التي اعتبرها لامارتين أول مقاييس عظمة العظماء في التاريخ . هل يوجد في التاريخ مثال آخر يضارع مثل هذه العالمية في الدعوة إلى دين الإسلام؟ ولم يكن هدف سيدنا محمد ﷺ هو تحطيم أي سجل سابق في مدى اتساع نطاق الدعوة الدينية ، ولكنه بكل بساطة كان يؤدي الأمانة التي أوكلها إليه رب العالمين .

٢- بساطة وضآلة تكاليف وسيلة تحقيق الغاية:

لم يولد محمد ﷺ وفي فمه ملعقة من فضة . لقد بدأت حياته بداية ضئيلة المساندة في تحقيق الهدف . لم يكن ابن ملك أو إمبراطور ، أو سليل أسرة حاكمة ليسانده هذا الاعتبار في تحقيق أي هدف كبير . كان أبوه قد مات قبل أن يولد ﷺ . وماتت أمه وهو في السادسة من عمره . وهكذا كان ﷺ يتيم الأبوين ، وهو لا يزال في عمر الطفولة الغضة . ويتولى رعايته جَدُّهُ عبدُ المطلب . ولكن يتوفاه الله بعد ثلاثة أعوام فقط . وحالما استطاع ﷺ القدرة على العمل شرع في أن يرعى أغنام عمه أبي طالب . وتستطيع أن تقارن المفارقة الكبيرة بين هذا الطفل اليتيم الأبوين وبين بعض الشخصيات الدينية العظيمة الشأن ممن سبقوه في هذا المجال ، مجال النبوة وحمل رسالة الله إلى الناس ، ولابد أنك ستعجب مما كان مخبوءاً له في عالم الغيب !

كان سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو الجد الأعلى لسيدنا موسى ، وسيدنا عيسى وسيدنا محمد ، عليهم جميعًا السلام ابنا لأحد رجال الأعمال في عصره . ولقد نشأ وتربى سيدنا موسى عليه السلام بداخل قصر فرعون مصر . وعلى الرغم من أن سيدنا عيسى عليه السلام كان يوصف بأنه نجار وابن نجار[1] ، فلقد كانت قد أتيحت له فرصة أن يتزود بالعلم ، كما أتيحت له أسباب القوة المادية منذ بدء دعوته بانضمام بطرس ، وفيليب ، وأندراوس إليه ، مساندين لدعوته لا لمجرد أن هالة من النور كانت تحيط برأسه ، فلم تكن هنالك أي هالة من النور حول رأسه

---

(١) ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ (النساء : ١٧١)

في حقيقة الأمر ، ولكن بسبب تأثير مظهره القوي ، ولهجته الآمرة . ولقد كان المسيح عليه السلام يستطيع أن يسيطر على الجماهير من قومه اليهود في أورشليم ، وكان الحواريون يساندونه في ذلك كل المساندة ، كما كان ذلك يتجلى أثناء أعياد اليهود واحتفالاتهم ، وكانت تعد له موائد الطعام للغداء ، أو لتناول وجبة العشاء ، وكان يستطيع أن يخاطب اليهود باللغة المادية التي يفضلونها ، كما يتمثل ذلك في قول الكتاب المقدس : «ولما وجدوه في عبر البحر قالوا له : يا معلم متى صرت هنا . أجابهم يسوع وقال : الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم» .

(يوحنا ٦ :٢٥-٢٦) .

لم يكن يملك ما يغري به:

لم يكن لدى محمد ﷺ خُبْزٌ ولا لَحْمٌ لكي يقدمه إلى الناس ليكسب رضاهم واعترافهم بنبوته ورسالته . لم يكن معه قطع من السكر من أي نوع أو حجم في هذه الحياة الدنيا أو الحياة الآخرة . والشيء الوحيد الذي كان يستطيع أن يقدمه لشعبه من الرعاة السعي المستمر ، وتحمل المشقّات لممارسة الحياة ، كما يجب أن تمارس الحياة فوق الأرض للوصول إلى مثوبة الله في الحياة الآخرة . وكانت حياة النبي ﷺ نفسه كتابًا مفتوحًا أمامهم . كان قد أوضح لهم منهجه في الحياة ، وفي الدعوة إلى دين الله من خلال النبل في أخلاقه ، ومن خلال سلامة واستقامة مقاصده وأهدافه ، ومن خلال حماسته القوية لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل وهو الهدف الأسمى لما كان يبشر به ، وينادي به من دين قويم . ولقد أفصحت كل تلك المناقب والخلال عن البطولة المثلى للبطل ، كما ينبغي أن يكون البطل بكل مقاييس بطولة الأبطال ، فاتبعوه . وتقييم المؤرخ ستانلي لين بول لهذه البطولة المحمدية جميل وصادق جمالاً وصدقًا يغري أن نقتبس منه ما يلي بالحرف الواحد ، إذ يقول :

«كان محمد ﷺ متحمسًا في أداء رسالته على نحو بالغ النبل ، عندما تكون الحماسة في تحقيق الأهداف النبيلة هي الملح الضروري للناس لكي يستطيعوا

الحياة فوق الأرض ، وعندما تكون الحماسة في تحقيق الأهداف النبيلة هي الشيء الوحيد الذي يحفظ حياة الناس من العفن أثناء بقائهم يعيشون أحياء بين البشر .

وفي كثير من الأحيان ربما يسيء بعض الناس استخدام الحماسة عندما لا تكون حماستهم مرتبطة بقضايا غير جديرة بأي حماسة ، أو عندما يزرعون بذور حماستهم في أرض مجدبة لا تنبت أي ثمار طيبة . ولم يكن ذلك هو شأن حماسة محمد ﷺ . لقد كان محمد ﷺ حماسيًا مفعمًا بالحماسة عندما تكون الحماسة هي الشيء الوحيد الذي يحتاج إليه العالم لكي يظل بخير حال ، وكانت حماسته ﷺ حماسة نبيلة من أجل قضية نبيلة .

لقد كان محمد ﷺ واحدًا من أولئك القلائل الذين كانوا يستمتعون بالسعادة ، والذين كانوا يفرحون كل الفرح عندما يجعلون من الحق الأوحد الأعلى النبع الوحيد للحياة .

لقد كان محمد ﷺ هو رسول الله الإله الواحد ، ولم ينس طوال حياته على الإطلاق وحدانية الله ، ولم ينس أبدًا الرسالة الإلهية التي كانت هي لب ومحور حياته كلها . ولقد كان يسمو دائمًا بأفضاله على الناس وهو واثق بنفسه بسبب وثوقه بمركزه ، باعتبار أنه رسول الله الذي اختاره لأداء رسالته إلى الناس ، بالإضافة إلى التواضع التام الجميل الذي تمتد جذوره إلى معرفته التامة بالضعف البشري دون المدد من الله سبحانه وتعالى» .

ويمكن التسليم بسهولة أن محمدًا ﷺ كان مزودًا بأقل ما يمكن تصوره من الإمكانات وأسباب القوة البشرية . وفي الحقيقة ، لقد كانت كل الظروف تعمل ضده . ولكن ، ماذا كان نصيبه من النجاح في أداء رسالته في النهاية؟ لقد أصبح سيد شبه الجزيرة العربية ! وما هي الإمكانات والوسائل التي لا حصر لها التي كانت تحت تصرفه آنذاك؟ سندع لأحد المبشرين بالدين المسيحي يتحدث في هذا الصدد :

«كان محمد ﷺ يجمع في شخصيته بين إمكانات «بابا» المسيحية ،

وإمكانات «قيصر» الإمبراطورية الرومانية . ولكن لم يكن له غرور وغموض وصلف البابا ، ولم يكن لديه جيوش وأسلحة القيصر . لم يكن له جيش متأهب للقتال ، ولم يكن له حرس إمبراطوري ممتاز التسليح ، ولم يكن يقيم في قصر من القصور المنيعة الضخمة الفخمة البناء ، ولم يكن له مخصصات مالية ثابتة يتقاضاها بموجب منصبه الديني أو الدنيوي . ولو كان لأى إنسان الحق في أن يقول : إنه كان يمارس الحكم بموجب حق أو أمر إلهي فلقد كان ذلكم هو محمد ﷺ ، لأنه كان يمتلك كل قدرات ممارسة الحكم دون أن يكون قد ورث أدوات ووسائل الحكم كما جرى بذلك شأن الملوك والقياصرة والحكام في الممالك والإمبراطوريات» .

(ر .بوزويرث سميث في كتابه : محمد والمحمدية - ص٩٢ - لندن ١٨٧٤) .

عناية الله جنده :

كان ضعف وقلة إمكاناته هما سر قوته . إن نفس الحقيقة المتمثلة في أنه لم يكن يمتلك ، مُقَدَّمًا ، وسائل المساندة المادية جعلته يضع كل ثقته بالله سبحانه وتعالى . وكان نجاحه مذهلاً إلى أكبر حد يمكن تصوُّرُه . ألا يجوز للمسلمين بحق أن يقولوا : إن العمل كله كان من صنع الله سبحانه وتعالى؟ ألا يجوز لهم أن يقولوا بحق : إن محمدًا ﷺ كان مجرد اختيار من الله للإنسان الذي يحقق إرادة الله ويبلغ رسالة السماء إلى الأرض؟ .

٣- نتائج باهرة :

على حد قول توماس كارلايل : «لقد كان محمد ﷺ رجلاً واحدًا في مواجهة كل الرجال» . رجل واحد جاء بالدين الصحيح ، دين الإسلام من الله إلى الناس . وقاوم الناس الدين الجديد . وحقق محمد ﷺ الانتصار للدين الصحيح ، دين الإسلام ، وكان انتصار محمد ﷺ في هذا الصدد انتصارًا باهرًا ، انتصارًا كان يمثل أروع ما يكون الانتصار عندما كان يقف وراء محمد ﷺ في حجة الوداع مائة وأربعة وعشرون ألف مسلم . وكم كان عدد المسلمين الذين لم يحضروا معه حجة الوداع من الرجال والنساء والأطفال المؤمنين برسالته؟ .

ويقول ابن هشام في كتاب السيرة النبوية : «**في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر الهجري الموافق تقريبًا لليوم الثاني من شهر يونيه من سنة ٦٣٢ميلادية انتقلت روح النبي العظيم ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو يصلي ويدعو الله بصوت خفيض**» .

وعندما سمع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأخبار المحزنة عن انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى فقد اتزانه الذي كان معروفًا به ، لأنه كان قد صُدِمَ صدمة شديدة لدرجة أنه صاح قائلاً : «لو قال أحد إن محمدًا ﷺ قد مات لضربت عنقه!» ولكن سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه عندما تحقق أن النبي ﷺ كان قد انتقل بالفعل إلى الرفيق الأعلى خرج إلى الناس من مسكن النبي ﷺ وقال : «أيها الناس إن من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» .

وأعادت كلمات أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى سيدنا عمر الفاروق صوابه . هل كان هذا الرجل ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قدر له أن يكون هو الخليفة العظيم الثاني في الإسلام - في تلك اللحظة يتصور أنه بعد ألف وأربعمائة عام سيصبح عدد أتباع محمد ﷺ ألف مليون مسلم؟ هل كان يستطيع أن يعرف أن دين النبي ﷺ سيكون هو أكبر وأسرع الأديان انتشارًا في العالم؟

لقد سبقت الديانة المسيحية الإسلام بنحو ٦٠٠سنة . ويدعي المسيحيون أنهم من حيث عدد الأتباع لدينهم يفوقون أتباع أي دين آخر . وهذا صحيح من الناحية العددية البحتة ، ولكن من الأفضل أن ننظر إلى الصورة في وضعها الصحيح الذي يمكننا من إدراك كل تفاصيلها :

يقول ريفراند بورلي :

« يوجد عدد من الناس الذين يعلنون انتماءهم إلى المسيحية أكبر من عدد الذين يعلنون انتماءهم إلى الإسلام ، ولكن عدد من يمارسون طقوس العبادات من المسلمين في العالم أكثر من عدد من يمارسون العبادات من المسيحيين »

(مقال بعنوان : حياة محمد ﷺ في مجلة : مسنجر الصادرة في الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ للقس بورلي» .

وأنا أفهم مما قاله القس بورلي أنه يحاول أن يخبرنا أنه يوجد أناس في العالم يضعون علامة في خانة المسيحية إشارة إلى أنهم ينتمون إلى الديانة المسيحية في الإحصاءات الرسمية ، وليس من الضروري أنهم يؤمنون بالعقائد المسيحية . ومن الممكن في حقيقة الأمر أن يكونوا ملحدين ، أو من طائفة «بوش بابتستس» ، وهي طائفة من المسيحيين الذين يرفضون الانتماء إلى أي كنيسة مسيحية ، أو أي مذهب من المذاهب المسيحية ، ولكنهم يسجلون أنفسهم في خانة الدين بالإحصاءات الرسمية باعتبار أنهم مسيحيون لمجرد التمايز عن اليهود أو الهندوس أو المسلمين . وحيث إنهم ينحدرون من أوساط مسيحية فإنهم سيصنفون أنفسهم باعتبار أنهم مسيحيون . وعلى هذا الأساس وباعتبار أن الإنسان المتدين يلزم أن يؤمن بعقائد دينه ، ويلزم أن يمارس عبادات دينه ، يوجد مسلمون أكثر عددًا من المسيحيين في العالم .

من الناحية الزمنية ، ظهر الإسلام متأخرًا عن المسيحية بحوالي ستمائة سنة ، ولكن من المدهش أن عدد المسلمين يجيء في المرتبة التالية مباشرة وبفارق ضئيل عن عدد المسيحيين ، كما أن الإسلام في طريقه إلى تقليص الفارق العددي بين الإسلام والمسيحية بسرعة فائقة . إن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا في العالم اليوم . (انظر الرسم البياني ص٥٣) . لقد بلغ عدد المسلمين بليون مسلم! ووجود هذا العدد الكبير من المسلمين في العالم يلفت الأنظار بشدة ، ويضاف إلى ذلك أن الإخلاص في العبادات وإيمان المسلمين بمعتقدات الإسلام مدهش إلى أكبر حد يمكن تصوُّره!

● **وعندما يضع شخص مثل الشاعر المؤرخ الفرنسي مقاييسه الثلاثة لعظمة الشخصية ، وهي :**

أ) عظمة الهدف .

ب) ضآلة الوسائل .

جـ) النتائج الباهرة في اعتباره ، فهل يستطيع أن يجد أي شخص آخر بحيث يكون أعظم من محمد ﷺ . وبالإضافة إلى ذلك نجد أن لامارتين يلفت أنظار القراء إلى الأدوار التي قام بها محمد ﷺ وهي أدوار عظيمة يستحيل أن يقوم بها شخص واحد ، إذ إن لامارتين قد اعتبره فيلسوفًا ، وخطيبًا ، ورسولاً من رسل الله - عليهم السلام- ومشرعًا ، ومحاربًا ، وهادمًا للأفكار الخاطئة الشائعة ، ومنشئًا للمعتقدات الصحيحة ، وهادمًا للأصنام والتماثيل ، ومؤسسًا لعشرين إمبراطورية ومملكة من إمبراطوريات وممالك الأرض ، ومؤسسًا لمملكة روحية واحدة ، ذلك هو محمد ﷺ .

وبالنظر إلى كل هذه المقاييس ، وأكرر كلمة «كل» ، بالنظر إلى «كل» هذه المقاييس التي يمكن أن تقاس بها العظمة البشرية يجوز لنا أن نسأل : هل يوجد أعظم من محمد ﷺ ؟» .

لا ، لقد كان محمد ﷺ هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض ، وذلك طبقًا لرأي ومقاييس المؤرخ الفرنسي لامارتين . ولقد أكَّد القرآن الكريم أن محمدًا ﷺ هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض ، وذلك في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح :٤) .

ولقد رفع الله له ذكره بما لا يدع مجالاً للشك ، فهو ﷺ وفقًا لإجماع ذوي الرأي من الشرق ومن الغرب هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض .

صفة الرحمة :

يدأب المروِّجُون للدعاية المسيحية على أن يفخروا ويفاخروا بأنه لا يوجد في تاريخ البشرية أي شخص يمكن مقارنته بصيحة المسيح عليه السلام وهو على الصليب في مجال الرحمة بالبشر ، وفي مجال الصفح عن آثام البشر وخطاياهم . . . . وذلك عندما صرخ المسيح قائلاً : «يا أبتاه ، اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لوقا ٢٣ :٣٤) .

ويبدو مدهشًا إلى أقصى حد ممكن أن القديس لوقا كان هو الوحيد من بين كُتَّاب الأناجيل الأربعة المعترف بها الذي ألهمه الروح القدس أن يكتب بقلمه

هذه الكلمات التي طالب فيها المسيح أباه أن يغفر لمن شرعوا في قتله صلبًا . وكُتَّاب الأناجيل الثلاثة الآخرون : متى ، ومرقص ، ويوحنا ، لم يسمعوا أبدًا هذه الكلمات تصدر عن المسيح في ذلك الموقف الرهيب المشهود ، وربما حسبوها كلمات فارغة من المعنى لا أهمية لها ، لدرجة أنها لا تستحق أن تسجَّل من جانب أي منهم . ولم يكن القديس لوقا واحدًا من الحواريين الإثنى عشر الذين كان قد اختارهم المسيح عليه السلام . ووفقًا لرأي مراجعي ومحرري النسخة المنقحة من الأناجيل (R.V.S) فهذه الكلمات التي ينسبها القديس لوقا إلى المسيح وهو فوق الصليب ليست موجودة في معظم المخطوطات القديمة للكتاب المقدس ، مما يعني في الواقع أنها كلمات منسوبة زورًا إلى المسيح عليه السلام .

ولقد وَرَدَ في طبعة النسخة الجديدة من إنجيل الملك جيمس التي أصدرها الناشر توماس نيلسون في عام ١٩٨٤ أن هذه الكلمات التي يحاول مُرَوِّجُو الدعاية المسيحية أن يستدلوا بها على تسامح ورحمة المسيح عليه السلام والمسيحية ، هذه الكلمات ليست موجودة في النسخة الأصلية للمخطوطة اليونانية لإنجيل القديس لوقا . وبكلمات أخرى ، لقد تم تزييف وإضافة هذه الكلمات بواسطة شخص من الأشخاص ذوي الفضل في تحريف الكلام في إنجيل لوقا . وعلى الرغم من أن هذا النص غير موثوق بصحة نسبته إلى قائله سنظل نضعه في اعتبارنا لأنه يشير إلى التسامح والمحبة للأعداء مما دعا إليه المسيح بنفسه .

ولكي يكون للتسامح قيمة ، فمن اللازم أن يكون الشخص المتسامح في وضع يتيح له أن يعفو وأن يسامح . وعندما يكون ضحية الظلم لا يزال في أيدي أعدائه وفي مخالبهم لا حول له ولا قوة ثم يصيح قائلاً لأعدائه : «أنا أعفو عنكم» فهذا الكلام لا معنى له . ولكن عندما يقلب الجانب الذي تعرض للعدوان المائدة على أعدائه ويصبح في وضع يمكنه من الانتقام منهم أو توقيع عقوبة مماثلة لما حاق به عليهم ، ورغم ذلك يقول لهم : «أنا أعفو عنكم» فعندئذ فقط يكون لذلك بعض المعاني !

الرحمة عند محمد ﷺ:

ولنقارن الآن هذه الرحمة [1] المزعومة والعفو عند الإعدام ، رغم عدم المقدرة ، بفتح مكة التاريخي الذي تم دون إراقة للدماء ، والذي حققه محمد ﷺ وهو يقود جيشًا من المسلمين بلغ عدده عشرة آلاف مسلم . ويصف لنا سيد أمير على تفاصيل هذا التسامح وحقائق ذلك العفو عند المقدرة عن الأعداء بقوله :

«مدينة مكة التي كانت قد عاملت النبي ﷺ معاملة بالغة القسوة ، وطردته مع أتباعه المخلصين طلبًا للجوء إلى الغرباء ، مكة التي كانت تهدد حياته وحياة أتباعه ، موجودة الآن تحت قدميه ، وأعداؤه القدامى القساة غلاظ القلوب الذين كانوا قد سحقوا الإنسانية بكل معاني الإنسانية عندما كانوا ينزلون عقوباتهم القاسية على المسالمين من أتباع محمد ﷺ رجالاً ونساء ، وعلى الموتى أيضًا ، إذ كانوا يمثلون بجثثهم أبشع تمثيل ، كانوا الآن تحت رحمته تمامًا . ولكن في ذروة انتصاره كان كل ما قاساه من شرورهم وآثامهم قد تم نسيانه . وكل إساءة كانت قد وجهت إليه كان قد عفا عن مرتكبيها . وامتد العفو العام من جانب محمد ﷺ ليشمل كل سكان مكة» . (سيد أمير على في كتابه : روح الإسلام) .

وبعد أن تكاثر أمام النبي ﷺ سكان مكة المغلوبة على أمرها خاطبهم قائلاً لهم : «يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم؟ «قالوا : «خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم» . قال ﷺ : «**سأقول لكم كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم . اذهبوا فأنتم الطلقاء!**» .

والآن ، هذا حدثٌ جرت وقائعه ، ولا يوجد له في حقيقة الأمر نظير ولا شبيه في تاريخ العالم . وتقدمت أفواج من الناس بعد أفواج يعتنقون دين الإسلام . ولقد شهد الله لهذا المسلك النبيل لرسوله الكريم محمد ﷺ وذلك

---

(١) حسب سيدنا عيسى عليه السلام أن الله قال فيه : ﴿ ولنجعله آية للناس ورحمة منا ﴾ (مريم:٢١)

في قوله الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

وكم كان لامارتين مجيدًا عندما سجل رجع أصداء هذه المعاني النبيلة عندما تساءل قائلاً : «بالنظر إلى كل المقاييس التي تقاس بها العظمة لدى العظماء من البشر ، يجوز لنا أن نسأل : هل يوجد رجل أعظم من محمد ﷺ ؟» .

وإجابة لهذا السؤال اللامرتيني نستطيع أيضًا أن نقول مرة أخرى :

«لا ! لا يوجد رجل أعظم من محمد ﷺ . محمد ﷺ هو أعظم رجل عاش على وجه الأرض!» .

ويتضح مما سبق بيانه أن نبينا محمد ﷺ قد كسب مدحًا وثناء لا نظير له ، ولا خلاف ولا معارضة فيه من جانب غير المسلمين ، من مختلف الأديان ، ومن مختلف مجالات الفكر والبحث العلمي . ولكن هذا كله لا يكتمل دون تقديم شهادة النبي السابق زمنيًا لنبي الإسلام ﷺ ألا وهو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وسنقدم الآن مقياس سيدنا عيسى عليه السلام لقياس العظمة المحمدية .

يوحنا المعمدان :

كان يوحنا المعمدان ، المعروف لدى المسلمين ، باعتبار أنه هو سيدنا يحيى عليه السلام معاصرًا للسيد المسيح عليه السلام ، وكان كل منهما ابن خالة الآخر . وهذا هو ما قاله المسيح عن سيدنا يحيى عليه السلام طبقًا لرواية إنجيل متى في هذا الصدد ، قال المسيح عنه : «الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان» (متى ١١ :١١) .

وكل البشر مولودون من النساء ؛ وطبقًا لهذه الحقيقة التى قررها المسيح عليه السلام يكون يوحنا المعمدان أعظم من الأنبياء السابقين مثل : موسى ، وداود ، وسليمان ، وإبراهيم ، وأشعياء عليهم السلام بدون استثناء لأي نبي من أنبياء بني إسرائيل . ما الذي يعطي لسيدنا يحيى عليه السلام ، أو يوحنا المعمدان هذه الأفضلية؟ يستحيل أن يكون السبب في هذه الأفضلية هو معجزة من

المعجزات ، لأن الكتاب المقدس لم يسجل أي معجزات لسيدنا يحيى عليه السلام أو يوحنا المعمدان . ويستحيل أن يكون السبب في هذه الأفضلية هو التعاليم الدينية ، لأنه لم يأتِ بأي تعاليم دينية جديدة . ما الذي يجعله إذن أعظم من كل الناس الذين ولدتهم أمهات بمن فيهم أنبياء بني إسرائيل السابقون له زمنيًا؟ السبب في ذلك بكل بساطة هو أن يوحنا المعمدان كان مبشرًا بقدوم المسيح . وكانت تلك البشارة هي التي جعلت يوحنا المعمدان أعظم من الأنبياء الذين كانوا قد سبقوه في تاريخ أنبياء بني إسرائيل . ولكن المسيح عليه السلام قد صرح أيضًا بأنه أعظم من يوحنا المعمدان ، فلماذا ؟ .

لقد قال المسيح بالحرف الواحد طبقًا لما ورد في إنجيل يوحنا : «وأما أنا فلي شهادة أعظم [١] من يوحنا . لأن الأعمال التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الأب قد أرسلني» (يوحنا : ٥ :٣٦) .

إن هذه «الشهادة» التي أشار إليها المسيح عليه السلام في قوله : «أما أنا فلي شهادة» التي ائتمن الله المسيح عليه السلام لكي يؤديها إلى أتباعه طالبًا منهم أن يتبعوا نبي الإسلام ﷺ حالما يتم ظهوره وقدومه إلى البشرية هي التي تجعل شهادة المسيح ﷺ أعظم من شهادة يوحنا ، وهكذا يمكن ملاحظة قيمة شهادة التنبؤ بقدوم نبي تال كما أعلنها المسيح عليه السلام نجد ما يلي :

١) يوحنا المعمدان أعظم من كل أنبياء بني إسرائيل لأنه بَشَّر بقدوم المسيح عليه السلام ، ولم يبشر أي نبي من أنبياء بني إسرائيل بذلك قبل يوحنا . وبالمثل نجد أن عيسى عليه السلام أعظم من يوحنا المعمدان لأن سيدنا عيسى عليه السلام قد بشر بقدوم سيدنا محمد ﷺ ، لذا يعتبر سيدنا عيسى عليه السلام صاحب أعظم بشارة بقدوم أعظم نبي ، خاتم الأنبياء والمرسلين نبي

(١) من الثابت بنصوص قاطعة الدلالة في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم أن المسيح عليه السلام كان قد بشر أتباعه بقدوم سيدنا محمد ﷺ خاتمًا للأنبياء والمرسلين - عليهم السلام- ومعه الشريعة الكاملة لكي تكتمل بذلك حلقات سلسلة الأنبياء ولكي يكمل رسول الله ﷺ للناس أمور الدين . (المترجم).

الإسلام ﷺ «روح الحق» على حد تعبير سيدنا عيسى عليه السلام أو «المُعَزِّى» بتعبير سيدنا عيسى عليه السلام أيضًا [1] الذي سيقود «العالم» بتعبير سيدنا عيسى عليه السلام إلى «كل الحق».

(كما ورد في الإصحاح ١٦ من إنجيل يوحنا).

٢) مهمة ورسالة سيدنا عيسى عليه السلام أو ما أطلق عليه المسيح عليه السلام قوله «الأعمال التي أناطها الله به لكي ينجزها»، كانت محدودة داخل نطاق معين لا تتجاوزه هو «الغنم الضالة من بيت إسرائيل»، على حد قول المسيح وفقًا لما جاء في إنجيل متى (١٥ :٢٤)، إذ يقول في هذا الصدد: «فأجاب وقال: لم أُرْسَلْ إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة».

(متى ١٥ :٢٤).

هذه هي رسالة المسيح، وتلك هي مهمته شأنه في ذلك شأن كل الأنبياء السابقين عليهم السلام. كان كل نبي منهم مرسلاً إلى قومه فقط، وكان المسيح مرسلاً لهداية قومه، بني إسرائيل، وتصحيح وتصويب ما خربوه وحرفوه من شريعة سيدنا موسى عليه السلام.

أما محمد ﷺ فقد كانت رسالته ذات طابع عالمي. كانت رسالته إلى العالم كله، إلى البشرية كلها، كما أخبر الله سبحانه وتعالى بصريح العبارة في القرآن الكريم حيث يقول سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء :١٠٧).

ونزولاً على مقتضيات الرسالة التي كلفه الله أن يؤديها إلى البشر جميعًا، قام محمد ﷺ بتبليغ هذه الرسالة إلى كل البشر بصرف النظر عن الجنس أو الطبقة أو العقيد. لقد رحب بهم جميعًا محمد ﷺ في دين الله دون أي

---

(١) يقول المسيح عليه السلام: «لكني أقول الحق: إنه خير لكم أن انطلق، لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم «المعزى». (يوحنا ١٦:٧) ويقول أيضًا: «إن لي أمورًا كثيرة لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك «روح الحق» فهو يرشدكم إلى «جميع الحق» لأنه «لا يتكلم من نفسه» بل «كل ما يسمع يتكلم به» ويخبركم بأمور آتية». (يوحنا ١٦:١٢-١٣). هذه هي نبوءة المسيح بقدوم سيدنا محمد ﷺ. (المترجم).

تمييز . ولم يكن لديه ﷺ أي ميل أو أي فكرة عن تقسيم الناس إلى «كلاب وخنازير» ، كما هو الشأن في إنجيل متى(٧ :٦) ، أو «خراف وماعز» كما في إنجيل مَتَّى (٢٥ :٣٢) . لقد كان ﷺ هو رسول الله رحمة لكل البشر كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء :١٠٧) . وهو ﷺ لم ينس هذه الرسالة منذ بدء بعثته إلى يوم وفاته .

وفي آوخر سِنِيّ عُمْره المبارك ﷺ ، أتيحت له فرصة أن يستعرض ما مضى في حياته من مشاق وأخطار تكللت في النهاية بالنجاح غير المسبوق في أي مكان أو أي زمان ، شعر محمد ﷺ أنه يستطيع أن يجني ثمار كفاحه ، وامتدت آماله لتصل إلى آفاق حياة تسودها الحرية لكل الناس ، حياة مليئة بالرضى والقناعة والراحة من كل المتاعب . ولم يكن يريد ذلك لنفسه ، إذ لم يكن لديه وقت للراحة أو الاسترخاء . لديه عمل كثير . ويذكره الله بهذه الحقيقة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ : ٢٨) .

كيف تسنَّى له ﷺ أن يتجاوب مع هذا التحدي المتمثل في هذا التكليف الكبير ، بأن تكون رسالته إلى الناس جميعًا ، وهو في تلك المرحلة المتقدمة من عمره المبارك؟ لم تكن توجد في حوزة البشرية آنذاك أي وسائل اتصال إلكترونية لتكون تحت تصرفه لأداء هذه المهمة الكبرى التي تشمل العالم كله . ولم تكن هنالك أي أجهزة تلكس ، أو أجهزة فاكس بحيث كان يستطيع أن يستخدمها . ماذا كان يستطيع أن يفعل؟ ولأنه ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ، فلقد استدعى إليه أشخاصًا يستطيعون الكتابة ، أملى عليهم خمسة خطابات ، إلى إمبراطور الرومان في القسطنطينية ، وإلى المقوقس حاكم مصر ، وإلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى ملك اليمن ، وإلى ملك الفُرْس ، ثم خمسة من الصحابة ، امتطى كل منهم جواده وأرسل بهم إلى خمسة اتجاهات داعيًا بذلك أمم العالم المعمور من حوله إلى دين الله الذي اختاره للعالم كله .

ولقد حالفني حُسْن الحظ بحيث شاهدت بنفسي واحدة من تلك الرسائل المباركة ، في متحف توبكابي في مدينة استامبول (أو القسطنطينية) في تركيا .

وكانت تلك الرسالة يعلوها الغبار! لقد احتفظ الأتراك بمادة الرسالة ، ولكن كان يعلوها الغبار ، وكان نصّ الرسالة يبدأ على النحو التالي : «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم بالقسطنطينية أسلم تسلم» .

وبعد هذه الدعوة إلى الإسلام ورد هذا التحذير المستمد من القرآن الكريم : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران :٦٤) .

وبعد هذا النص القرآني الحكيم الذي تضمنته الرسالة من محمد ﷺ إلى هرقل إمبراطور الرومان تنتهي الرسالة بالخاتم النبوي الذي يقول :

«لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

والخطاب الموجود في تركيا يثير لدينا أعظم فضول ، وحب استطلاع أن الآية القرآنية التي وردت في مضمون الخطاب موجودة في كل بيت مسلم . وهي تتلى وتعاد تلاوتها ألف مرة ومرة دون أن يتحرك من يقوم بتلاوتها أقل حركة في سبيل توصيل «الرسالة» إلى من وجه الله إليهم هذه الرسالة!

ولنعد النظرة مرة أخرى إلى نص الآية القرآنية الكريمة . إنها موجهة إلى أهل الكتاب- وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى . ولكننا منذ أكثر من ألف عام قد تجاهلنا وأهملنا شأن هذا التوجيه الإلهي الكريم من جراء تقصيرنا وفتور هممنا وضعف إرادتنا . إننا نجلس فوق كنوز هذه الرسالة الإسلامية ، مثل الكوبرا فوق كنز من الثروة الهائلة . الثروة موجودة ولكن الكوبرا تحول دون استفادة الناس منها ما دامت موجودة فوقها تحول دون انتفاع المستحقين من تلك الثروة . وهذا الإهمال التام لشأن هذه الرسالة الإلهية سيستمر لكي ينتج عنه أضرار وأخطار وآلام لا حصر لها بالنسبة إلى الأمة الإسلامية في الأجيال القادمة ما لم تؤد الأمة الإسلامية الرسالة التي أوكل الله إليها أن تؤديها إلى الأمم الأخرى .

وبعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة من قراءتنا وترتيلنا بمختلف طرق وأساليب القراءة والترتيل للقرآن الكريم ، نحن لا نزال نسمع هذه الآية القرآنية الكريمة

التى تنبهنا إلى حقيقة بالغة الأهمية ، إذ يقول الله - سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم : ﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ :٢٨) .

ولقد وَرَدَ هذا التعبير القرآني الحكيم ، وصدق الله العظيم في ختام الآية القرآنية الكريمة التي أنزلها الله في القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة : ﴿ ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ :٢٨) .

ولقد كان ذلك هو التعبير الصحيح الذي ينطبق كل الانطباق على الموقف الديني في العالم فيما بعد . والسؤال الآن هو : هل يختلف الأمر من الناحية الدينية في العالم اليوم عمّا ورد في ختام هذه الآية الكريمة ؟ لا ، إن الأمر لا يختلف أي قدر من الاختلاف . ما أكثر الناس الموجودين في العالم اليوم ولا يعرفون أن الإسلام هو دين الله الصحيح ، ولا يعرفون أن محمدًا ﷺ هو آخر الأنبياء المرسلين ، أرسله الله بشيرًا ونذيرًا إلى جميع الناس في كل مكان وزمان! حقًا ، إن أكثر الناس لا يعلمون بالضبط كما قال الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة . ويوجد في عالم اليوم عدد من المشركين يفوق عدد من يعبدون الله الواحد الحق .

هل يوجد أي أمل في تغيير هذا الموقف؟ إن الله - سبحانه وتعالى- قد أمر النبي ﷺ كما يأمرنا ، وذلك من خلال الآيات السبع الأولى في صدر سورة المدثر ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ (المدثر :١) .

ويوجد ثلاثة اعتبارات في هذه الآيات في صدر سورة المدثر :

أ) مناسبة خاصة بالنسبة إلى شخص مُعَيَّن .

ب) درس روحي عام لكل المسلمين .

جـ) معنى روحي عميق يشير إلى حالة نفسية من الحالات التي توجد في الحياة الروحية للإنسان .

وبالنسبة إلى الاعتبار (أ) :

كان النبي ﷺ آنذاك قد تجاوز مرحلة التأمل الذاتي ، وكان عليه آنذاك أن يرتدي عباءته ، وأن يخرج ، وأن يبلغ رسالة ربه ، الله الواحد الحق ، بجرأة وبثبات وعلنًا إلى الناس . لقد كان قلبه على الدوام نقيًا خاليًا من الإشراك بالله ، ولكن كل تصرفاته الآن لن تنحصر في ألا يكون هو نفسه من المشركين ، بل من المحتم عليه أن تتجه كل تصرفاته لتكون خالصة لله ، وخالصة للدعوة إلى الله الواحد الحق الذي لا إله إلا هو . واحترام الأعراف المتوارثة لدى قومه ، وممارسات عبادتهم الخاطئة يلزم الإطاحة بها . إن جهوده في تبليغ رسالة ربه جهود سخية ، كرّس لها كل إمكاناته ، ولكن تجاوب قومه وعشيرته مع هذه الجهود الشخصية كان عسير المنال ، وكان يحتاج إلى كثير من الصبر وقوة التحمل ، وعزاؤه في الجهد والمشقة ، وقلة تجاوب قومه وعشيرته هو رضى الله سبحانه وتعالى عن أمانته في تبليغ رسالة الله إلى الناس .

وبالنسبة إلى الاعتبار (ب) :

مهام مشابهة للمهمة التي اضطلع بها رسول الله ﷺ بدرجة أقل في حياة كل مسلم يحرص على حُسْنِ إسلامه ، لكي تكون حياة النبي ﷺ نموذجًا عالميًا ، يلزم أن يحرص عليه كل إنسان مسلم له في رسول الله ﷺ أسوة حسنة .

وبالنسبة للاعتبار (جـ) :

نجد أن المتصوفين المسلمين يدركون جيدًا أن العباءة إنما هي ملبس خارجي فوق الثياب ، وفوق الجسم ، وفوق كل ما يجول داخل الجسم . والظروف المتعلقة بالوجود الظاهري الذي يتبدى للعيان ، وللحواس المدركة في الإنسان ، وهي الظروف اللازمة لنا لكي نستريح عندما نلبي مطالب راحتنا في الحياة إلى حد مُعَيَّن قَدْرَ استطاعتنا ، ولكننا سرعان ما نتجاوز ذلك الجانب الحسي الملموس في حياتنا لكي نتأمل ذواتنا ، وما يدور داخل ذواتنا ، وهو سرعا ن ما يعلن عن نفسه ، ويعبر عن وجوده ، وهو في حالته المثلى لا يتجه إلى الحصول على مكافأة أو الحصول على ملذات مادية ، لا تتسق مع ما ننشده من سمو روحي ،

لا يتهافت على الملذات المادية ، ولكن يتجه ، ويهدف إلى الحصول على الفرح والنشوة عندما يتحقق له الحصول على مرضاة الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (المدثر : ٢-٥) .

يقول عبد الله يوسف على تفسيرًا لهذه الآيات في ترجمته لمعاني القرآن الكريم : «الرجز ، بضم الراء ، أو بكسر الراء هو الشيء القبيح المستهجن ، وهو يعني أيضًا عبادة الأصنام من حيث هي شيء قبيح مستهجن ، ومن الممكن أن يكون الرجز اسم من الأسماء التي كان يطلقها الوثنيون على صنم من الأصنام جريًا على عاداتهم في تخصيص كل صنم باسم يميزه عن غيره . ولكن في أيامنا الراهنة يمكن أن نعتبر أن الرجز أيضًا يتضمن في معناه الحالة الذهنية المناهضة للإيمان الصحيح بالدين الحق ، وعبادة الله حق عبادته ، وهو يتضمن في معناه أيضًا حالات التشكك والإلحاد بالله سبحانه وتعالى» .

﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ «القاعدة القانونية والتِّجارية هي : أنك تعطي لكي تأخذ ما يحق لك ، بحيث يكون أكثر قليلاً مما أعطيت . ولكن عطاءك لله ، وبذلك الجهد في سبيل الله يلزم ألا تنتظر في مقابل ذلك الأجر الناجز . جاهد في سبيل الله ، وفي سبيل خلق وعباد الله ، والله سبحانه وتعالى هو الذي يجزى ما شاء من جزاء» .

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ «إن جهادنا في سبيل الله يتطلب ألا نكون غير صبورين . من الضروري أن نصبر على المكاره والمشاق أثناء جهادنا في سبيل الله . ومن الضروري أن نثابر ونواصل الجهد في سبيل انتصار قضية الله ، لأننا نؤمن بالله ، ونؤمن أن الله هو العليم الحكيم القوي المتين ، وسيكون كل شيء كما يريد الله سبحانه وتعالى» .

وبالنسبة للعرب عمومًا ، وبالنسبة إلى النبي ﷺ خصوصًا ، تعتبر العباءة التي يتدثر بها الإنسان ثوبًا يتم ارتداؤه فوق كل الملابس ، للحماية من الشمس والرياح والرمال والبرد ، ويمكن القول بأنه كان قد تدثر بهذا الدثار لكي ينهض بأداء عمله وتبليغ رسالته . وعلى الرغم من أن معظم المسلمين في العالم اليوم لا يرتدي كثير منهم العباءة فوق ملابسهم ، ولكنهم في الغالب الأعم يخفون أنفسهم ويختبئون تحت كثير من الأغطية الكثيفة ، لكيلا يؤدي أي شخص

منهم واجبه نحو تبليغ رسالة ربه إلى الناس ، على الرغم من أن النبي ﷺ الذي يعتبره كل مسلم قدوته الحسنة ، كان قد «تدثر» في عباءته ، وخرج لكي يؤدي إلى الناس رسالة ربه . إن المسلمين في أيامنا الراهنة يتدثر كثير منهم بدثار عقدة الشعور بالنقص والدونية والانحطاط دون نقص أو دونية أو انحطاط في حقيقة الأمر فيما يتصل بأمور دينهم أو دنياهم لو أخلصوا العمل ، وأطاعوا الله وأطاعوا رسول الله ﷺ . وفي ذلك يقول عبد الله يوسف علي :

«ماذا نستطيع أن نفعل لنجعل نور الله يسطع من خلال الظلمات حولنا؟ يجب أولاً أن نجعل نور الله يسطع داخل أنفسنا بكل إخلاص . وبذلك النور في المشكاة الموجودة داخل قلوبنا نستطيع أن نمشي بخطوات حازمة وثابتة . ونستطيع بكل تواضع أن نزور المحرومين من الراحة ، ونرشدهم ونشجع خطواتهم ، ولن نكون نحن الذين نفعل ذلك ، بل سيكون النور هو الذي يقوم بالمهمة . ولكن فلننتبه ، إن الفرحة الناجمة عن أن تكون أنت حامل مشعل النور ، ثم تقول لإخوتك : «لقد كنت أنا أيضًا أتخبط في الظلام الدامس ، ولكنني وجدت الراحة والسرور بفضل من الله» هكذا نستطيع أن ندفع ضريبة الأخوَّة عندما نمشي بكل تواضع جنبًا إلى جنب ..... في سبيل الله ..... يساعد كل منا الآخر ، ويواسيه ، ويشد من أزره ، ونصلي لله ونشفع صلواتنا بالأعمال النافعة ، لكي يتحقق ما يطلبه الله منا ، عندما نتعاون جميعًا في تبليغ رسالة الله وتحقيق مشيئته» .

هذا ، ....

﴿ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ : ٢٨) .

هكذا كان يتحدث كما أوحى الله إليه نَبيُّنا الكريم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وسَلَّم، عليه رحمة الله وبركاته إلى أبد الآبدين .....

آمين

فهرس المحتويات

محمد ﷺ



إن الله سبحانه وتعالى يدافع عن أنبيائه، ويحافظ على مكانتهم بين الخلائق سواء كان ذلك فى حياتهم أو بعد مماتهم.

ولقد اختص الله محمداً ﷺ بالقدر الأكبر من الحماية نظراً للاضطهاد الشديد الذى لاقاه أثناء دعوته للدين الإسلامى وكذلك للإشاعات والاتهامات التى تصدر ضده كل حين من فئة ضالة مضلة بغرض النيل من عقيدة الإسلام التى جعلها الله هى العقيدة الصحيحة لجميع البشر، فكان ذلك على عكس أهوائهم ومصالحهم الشخصية.

ومن مظاهر الحماية الإلهية لنبيه الكريم أن يسخر له من غير المسلمين من ينصفه ويدافع عن آرائه ويعظم من شأنه ويرفعه فوق البشر جميعاً بما له من صفات قيادية وأخلاقية وسلوكية لا يمكن أن تتحقق لإنسان آخر.

ونحن فى هذا الكتاب نقدم ترجمة لكتاب جمع بين شخصين يُعظمان من شأن رسولنا الكريم، أحدهما أجنبى غير مسلم، ولكن أبحاثه ودراساته قادته لعدة استنباطات واستنتاجات لم يستطع معها أن يتوارى ويهرب من قول الحقيقة الدامغة وهى أن محمداً ﷺ هو أعظم العظماء فى التاريخ!!

أما الثانى فهو المناضل المسلم المعروف «أحمد ديدات» الذى بذل كل ما فى وسعه لترسيخ أسس عقيدة الإسلام التى يحاول الغرب زعزعتها وهز أركانها وخلخلة دعائمها!. وهو لا يتحدث بطريقة سرد الأحداث ولكنه يكشف ما وراء الحدث حتى يظهر ما قد يغيب عن ذهن البعض ليبين القدرة الإلهية التى ساندت وعضدت الرسول بما يدلل على أنه مبعوث من عند الله عز وجل. وقد استغل ديدات كلمات وإيضاحات هذا الرجل وغيره من الأجانب ليدحض بها مزاعم أقرانهم ممن يلوون الحقيقة، ويروجون الأباطيل، ويعيثون فى الأرض فساداً.. ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

الناشر



2008 900326